# انتحار تکتیکی

**عنوان الكتاب : انتحار تكتيكي**
**المؤلف : د. تهاني محمد**
**التصنيف: رواية**
**التدقيق اللغوي: علي ياري**
**التنسيق الداخلي : مؤسسة ابجد**
**تصميم الغلاف: دكتور مهند الحيالي**
**ISBN: 978-9922-696-75-1**

أبجد للترجمة والنشر والتوزيع
Ebjed for Translation, Publishing & Distribution

**الطبعة الثانية**
2024
**مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع**
**العراق – محافظة بابل – الحلة – شارع أربعين**
**جوال:** 009647831010190
info@ebjed.com

**ان جميع ما ورد في الكتاب يعبر عن رأي الكاتب او الكاتبة ولا يعبر عن رأي الناشر. وان حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الأنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الناشر.**

رواية

# انتحار تكتيكي

د. تهاني محمد

**لتستحم روحي في نهرِ النسيان (ليثي).. عندها سأنسى من أنا وأعود إليكِ في جسدٍ آخرَ وروحٍ غير معذبة.. وسأحبك من جديد.**

نهـر ليثـي هـو مـن أنهـار العـالم السـفلي فـي الحضـارة الإغريقية، ويعتقد الإغريق أنَّ من اغتسل بنهر ليثي يخرج فاقداً لذاكرته.

# (1)

# (رسالة)

لستُ منهم ولن أكون، لن أستمرَّ في الدوران مغمضَ العينين مثل ثور الساقية، ولن أكتب حكايتي على صفحةِ الماء، ما إن أنتهي من خطِّ حرفٍ حتى ينمحي ما قبله، لستُ جباناً يا ندى.. وما سأقدم عليه ليس مبرراً للهروب، أنا فقط أرثي حالي وحال هذه البقعةِ التي تطاردها اللعنات منذ أن وُجِدتْ على ظهر هذا الكوكب المسكين، الذي يتناوب على اغتصابه المجانين مذ ولد سابحاً في فضاءٍ مخيفٍ لا قرارَ له..

الصندوقُ الخشبي يلاحقني.. وحفّار القبورِ يعطرُ فأسَهُ بالكافور...

إنهم يريدون منّا أن نكونَ شيئاً بلا روح، مثل قطعةِ مطاطٍ أو خشب، جماداً لا روح فيه، خاضعاً لا يغضب ولا يثور.

اعذري جنوني يا ندى، سأطلق الآن رصاصتي الأخيرة.

سـأخرج مـن تلـك المهزلـة، لأنَّنـي غيـر مقتنـعٍ بالهلوسـة البغيضـة التـي زُجِجْـتُ فيهـا رغمـاً عنـي؛ مثلمـا زُجَّ فيهـا كثيرون غيري.

سـأكون عنـدك فـي الموعـد المحـدد، عنـد السـاعة السـابعة، مساءَ الخميس، الأسبوع المقبل...

انتظريني كما اتفقنا سلفاً.. لن أخلف الموعد.

ولن أكون بهيمةً في حربٍ أوارُها المتقدُ شارفَ على عامهِ الخامس. ولهيبُهُ يزداد ضراوةً دون أدنى أملٍ في الخمود.

**حسين**
**1985**

# (2)

# (رصاصة)

تـلالٌ متحركـة، رمـالٌ علـى مـدِّ البصـرِتتلوى تحـت أشـعةِ الشمسِ الضـاربة إلـى الحمـرة، سـاعاتُ النهـارِ تزحـفُ مثقلةً مثل سلحفاةٍ معمرةٍ مصابةٍ باللامبالاة، تختبئ الشـمسُ فزعةً مـن غسـقٍ شـتائيٍّ بـاردٍ، موسـومٌ بسـوء الطـالع، ريـحٌ تعـوي، رؤوسٌ تحت خوذٍ ثقيلة، تتلصصُ عـن مصيرها مـن خلف الساتر الترابي، شتاءٌ يزحفُ بأجنحةٍ جليدية، انتظار، كـلاب تنـبح، عتمـةٌ تُطبـقُ شـيئاً فشـيئاً حتـى يتسـربَ الظـلامُ عبـر المساماتِ ليحتلَّ الأجسادَ بالكامل، ينتصف الليل، قصفٌ مدفعي، رصاص، صرخات، أقدامٌ تهرول، قلمٌ يتوقف بين حـرفين، ثـم صـرخة مكتومـة، الكلمـاتُ تنزلـق هاربـةً مـن الورقـة، سـاقٌ تتقيـأ دمَهـا، بـرد، ريـح، صـرخات، عتمـةٌ برائحـة الـدم، أشـياءٌ تتبعثـر، رؤوس، أذرع، أرجـل، ثلاثـةُ أشباحٍ تسرع الخطى متراجعةً نحو الخلف، اثنان يسـحبان ثالثهما من تحت إبطيه، أخدود من الدم يتعبهم، بقـع الـدم تتخثر في الرمـال البـاردة، الـدم يرسـم جنـاحَ فراشـةٍ ممـزقٍ على وجهِ الورقة التي اندثرت حتى المنتصف بين الكثبان،

**الرمال تزحف، رمال متحركة، هنا تبدأ في تلك اللحظة، تبدأ قصة، تبدأ.. ولن تنتهي أبدا.**

# (3)

# (الجسر- بغداد 2015)

الواحدةُ بعد منتصف الليل.. الجسرُ خالٍ إلا مني.. يقبع الجسر في وحشتهِ مرتين في اليوم، حيث يهجره الجميع.. حين تحرقُ جسده شمسَ النهارِ القائظ تارة، وحين تغادره لتنامَ في غروبها تارة أخرى. يسكن الجميع إلى مضاجعهم، تاركين خلفهم جثةَ الفولاذ والإسمنت التي احتضنتْ أقدامهم طيلةَ النهار من دون أيّ شعورٍ بالإثم..
كان الجسر الحديدي فارغا من المارة مكتظا بي وحدي . أنا وهو غريبان جمعتهما ساعة العتمة الموحشة ولسعات الحنين القارصة . لم اقو على العودة إلى منزلي هذه الليلة كعادتي في الأيام الخالية عند خروجي من مكتبة الحاج صباح ساعة احمرار الشفق وانحسار الضياء معلنا نهاية حقبة ثقيلة من عري مؤلم يسمى نهارا.
كان الليلُ سكني ووسادتي لكنه ومنذ شهر خلا لم يعد كذلك، أمسى الليل يمتصُّ دمي ويلقي بي في عمق الذكريات، حتى بتُّأخشى ولوجَهُ في أطرافِ نهاري.

تلك الرصاصةُ اللعينةُ لم تفارقْ روحي. هل كنت جباناً حقا؟ أم مجنوناً يطلب الحرية في زمن العبيد! أم متمرداً كما كانت تنعتني أمي.. أمي التي لم تخرجْ من بين شفتيها كلمةٌ لا وربما لا تعرف كيف تقولها أساساً.

ربحتْ بجنوني عتقَ رقبتي وخسرتُ ثلاثاً. ربحت اثنين مقابل ثلاث. هل يا ترى تلك معادلة متوازنة الأطراف! اثنان مقابل ثلاث.. أين الفوز في هذا أيها الغبي! حريتي ومبادئي مقابل ساقي وأحدى كليتي وحبيبتي.

قدماي تخطُّ على الجسر الحديدي. أسمع وقعهما الشاذ إنه يترك صداه في نفسي، منذ عدة عقود سقيمة. وقع خطواتي يثير في نفسي الاشمئزاز. وأنا أجرُّ ساقي المعاقةَ جرّاً على الإسفلت المعلق في الهواء، أسمع أنيناً مكتوماً لا أعلم مصدره ربما هو أنينُ روحي الضالة، أو أنين الجسرِ الحديدي الذي يبكي غدر من مروا عليه، وداسوا جسده بأقدامهم الوقحة.

رصاصةٌ لعينةٌ أطلقتها على ساقي بيدي، معتقداً أنني سأرفع هامتي بوجه دكتاتور يُصَيّرُ حياتي بيده مثل عجينةٍ مصنّعةٍ يلعب بها الأطفالُ ويشكلون منها وحوشاً وحيوانات مسلوبةَ الروح والإرادة. ما زلت أذكر ما أقدمتُ عليه في تلك الليلة.

حيث كانت خطّتي أن أستغلَّ وقتَ هجوم العدو، وبدايةَ معركةٍ كسابقاتها، فأطلق النار على قدمي اليمنى وأحطم عظامها، كي أصبحَ معاقاً وأنسحبُ من بالوعةِ الموت تلك؛ كوني لا أصلح للقتال، لكن الرصاصة الطائشة أخطأتِ الهدفَ فضربتِ الساقَ في منتصفها، وهشّمتِ العظمَ وأحدثتْ خرابًا كبيرًا من مسارِ دخولها، حتى نقطة الخروج..

لم أعِ ما حدثَ لي على وجهِ الوضوح، لكنني بعد ثوانٍ قليلةٍ شعرتُ بإعياءٍ شديدٍ وضيقٍ في التنفس، ثم غشاوةٍ وظلامٍ يعتلي بصري، حتى فقدتُ الوعيَ ويدي تمسكُ بتلك الورقةِ البيضاء، التي كتبتُ فيها رسالتي إليك، والتي اصطبغتْ بالدم ومازال مصيرها مجهولاً حتى اليوم.

كنتُ أودُّ الخروجَ من بالوعةِ الموت.. أحياناً من الأفضل أن تنتهي معا قاًعلى أن تموت..

وساوسهم الخبيثة تقول.. من لم يمتْ في الحرب خائن... ففي الجبهات إما أن تكون قاتلاً أو مقتولاً.. لست من هواة القتل.. ولا من عشاق الموت أيضاً..

أنا فقط... أريد .. أن .. أعيش.

ندى، يامن تركتني أغرق وأسماكُ القرشِ تقطّعُ لحمي غير المملّح، فتأكلني حيّا.. تقذفك الأمواجَ اليوم بعد كل تلك

السنوات، تلوحين لي مثل حوريةِ بحرٍ أسطورية، تفتح ذراعيها تطلب احتضان أشلائي المقطعةِ القابعةِ في جوفِ أسماكِ القرش اللعين...

أتعلمين شيئاً يا حوريتي؟ أنتِ لستِ سوى حمقاء تقفُ على جرفِ الحياة.. ماذا تفهمين أنتِ عمّا يشعر به إنسانٌ وجدَ الحقيقة! أتظنّين أنَّ من يفهم الحقيقة أحمق؟ كلا يا عصفورتي، من أبصر الحقيقة هو من يعتنق فكراً وينشقُّ بفكره عن سيرِ القطيع .. إنه يناضل، يصارعُ الحياةَ ويقارع المقبول والعادي ليس غروراً، أو تشدقاً، أو حباً في الاختلاف، بل لانَّ المقبولَ والعادي مما تعود عليه البسطاء من الناس ما هو إلا هراءٌ أفتى به رجلُ دين، أو زعيمٌ مصابٌ بالهوس .. فإن خالفهم مثلي الرأي والفكر؛ غيبوه في سجونهم خوفاً من سريان عدوى أفكاره.. ثم ينفكُّ عنه محبوه، ويهجره قريبهم، وينبذه بعيدهم، وكأنه مصابٌ بالجذامِ أو الجنونِ المخجل.. لكنني أرى أنَّ المخجلَ هو سكوتنا عن الباطل ونأينا عن الحقِّ خوفاً أو تملقا.

يبدو أنني أثرثرُ مستغلاً الظلمة والسكونَ وصوتَ أمواجِ دجلةَ الضاربةِ في جرفهِ، أقفُ وحيداً أحدثُ نفسي كالممسوس، أتلو قصتي على نفسي، فيستمع إليها النهرُ

دون أن يجيب. لا أحد يجيب المجانين.. أو ربما لا أحد يحفل بضحايا القدر..
القدر.. يا لها من كلمة! أتظنين أن هناك شيء اسمه "قدر" بالفعل؟
بالنسبة لي ما زلت غير متأكدٍ من وجوده.. ثم ماذا لو لم يكن له وجودٌ أساساً؟ وكل ما حدث ويحدث ما هو إلا خطوات أقدامنا، فيها الكثير من الحماقة وسوء تقدير.
ماذا لو كان القدر شمّاعةً أثريةً صدئةً، نعلق عليها تفاهاتنا وسوء خياراتنا !
أستطيع أن ألعبَ الآن لعبةَ مع القدر.. الحقُّ أن لي الليلة مزاجٌ كبيرٌ في الموت...
وكم أتمنى أن أودعَ الحياة هنا في هذه العتمة وحيداً..
مُنيتي الليلة أن أطوى كما تطوي السفينة جناحيها وتغرق في المحيط، تاركةً وراؤها عويلاً وأسئلةً لا جواب لها.. ففي قاع المحيطات تكمن كل الأجوبة.
لا إثمَ في أن أتمنى نهايتي اليوم، ففي نهايةِ الأمر كلنا سنموت.. أنا وأنت.. كلنا، كما غيرنا.. لا فرقَ في الوقتِ حين يكون الموتُ مؤاسياً لنا. ثم أنَّ الليلةَ القمرُ بدرا، ورذاذٌ لطيفٌ بدأ يهمي للتو من الغيمات الحبلى وهي تتكئ على كتف بعضها بعضاً... طقس رائع هذه الليلة.. القمر

يبدو ضخماً مثل كرة من النحاس.. يهرب عارياً من ستر غيماته، ويتركها مكوّمةً على بعضها مثل خِيَمٍ تكسّرت أعمدتها ويشقُّ بصدره المكوّرِ السماءَ، ليسبغَ هدوءاً غريباً على عتمةِ الجسرِ وينسج أسراراً و حكايا.

أرى أنه وقتاً رائعاً للموت. ما رأيك يا حوريتي؟

منذ زمنٍ بعيدٍ لم أسحبْ شريطَ الذكريات من قبره.. لكنه اليوم يستيقظُ مثلَ وحشٍ سطوري بألفِ جناح.. يفردها كلها في وجهي دفعة واحدة... يعرض محطاتي على شاشةٍ عملاقةٍ تفقدني بصري.

لا أدري إن كنت أحلم.. لم أعد أميز بين اليقظة والحلم... صورٌ كثيفةٌ متلاحقةٌ تمرُّ أمام ناظري، لكن مهلاً.. ماذا يحدث؟ إنه صوت رصاص.

يأتي من بعيد، يشق الصمت، يبدو أنَّ أحدهم يحتفل بخطب ما. لا أعتقد أنني أهذي.. إنَّ الصوتَ يقترب.. الصوتُ يقتربُ والسماءُ فوق الجسرِ ترصّعها نقاطٌ حمراء.. بالتأكيد هي ليست نجوماً...

فالنجومُ لا تطلق صوتَ الموت، إنه صوتٌ فرحٍ وأهازيج، ممزوجٌ بصوت الموت، لقد جُنَّ الناسُ ولا ريب.. ففي الأيام الغابرة - حين انتهت حرب الثمان سنوات - جنَّ الناسُ أيضاً لكنه كان جنوناً رقيقاً، فراحوا يتراشقون بالماء

ويغرقون بالبللِ والضحكِ الهستيري دون وعيٍ منهم، فمن كان يصدق أنَّ أطولَ حربٍ في القرن العشرين تنتهي بكل تلك الغرابة في يوم وليلة!

لكن إذا كان لها من البساطةِ أن تنتهي هكذا لِمَ تلاعبتْ بنا مثل دمى معلّقة بالخيوط.. أنها لمهزلةٌ كبرى. لا بل المهزلة الأكبر أن يجن الناس اليوم، فيتراشقون بالرصاصِ ساعةَ الفرح، وتسيل دماءً بشريةً، بدلاً من دماءِ الخراف. يبدو أنَّ الخرافَ انتصرتْ في نهاية الأمر. وراحتْ تنعمُ بالسلام؛ بعد أن استعضنا عن نحرها بنحر بعضنا بعضاً.

بعض الرصاص يتساقط حولي على الإسفلت البارد للجسر، يحدث ندوباً إثرَ سقوطهِ على هذا الجسر المسكين. ربما تنالني أنا أيضاً رصاصةٌ هاربةٌ من فوهةِ بندقيةِ مجنونٍ راح يحتفل بفوز المنتخب، أو ربما يعبّر عن موقفهِ الرجولي وهو يطلق الرصاص في عرسِ أحدِ شباب الحي... يا لهم من أغبياء!

فالرصاص ينال منهم، يسخر من الجثثِ وهي تتزاحمُ في الطابور على دكّة الدفّان المصنوعةِ من الرخام الصقيل، يغسلها بالماء والسدر، ويلبسها حلةً بيضاء، ليواري عورتها ثم ترقد، هناك في مثواها وبدون سببٍ للموت؛ على أنه "رصاصة طائشة" .

لكن من هو الطائش حقاً، أهي الرصاصةُ أم من أطلقها؟
أعتقد أنَّ كلَّ هذياني هذا ليس مهمّا، ففي النهاية كلنا سنموت تحت عنوان (المغفور له) .
ينعتوننا بالمغفور له دون أن نمارسَ الغفران فيما بيننا يوما.
والآن هل أغفر لك أم تغفرين أنت لي؟ وهل سيغفر لي ولدي؟ إن صارحته بسرّي وسرّك النائم منذ عقدين من الزمنِ أو يزيد!
لنعدْ إلى اللعب مع القدر.. مادام الرصاصُ ينهال حولي كالسهام.. ألا يجب أن أموتَ برصاصةٍ لو وقفت هنا أنازل القدر وأتحداه؟ أعني أنَّ الدلائلَ العقليةَ تقول لابدَّ أن تصيبني رصاصة. لكن لو كان للقدر وجودٌ ولم يكن مقدّراً لي أن أموتَ هذه الليلة، فسوف تغير كل الرصاصات الحمقاء وجهتها وتحيد عن رأسي وصدري مستسلمةً لأمرِ القدر..
ولو لم يكن للقدرِ وجودٌ؛ إذاً من أتى بكِ يا ندى، وأقحمك في حياتي وحياة ولدي! بعد أن طوى النسيان قصتنا مثل صفيحة صدئةٍ دحرجتها العواصفُ ورمتْ بها في مقبرةٍ للقطعِ والهياكل الحديدية، عديمة الجدوى، وأبحر كل منا في قارب، فارداً شراعَهُ في وجهِ الريح،

وحين انتبهنا من رحلتنا، كأنتم راكبنا قد رستْ وصار كل منا في ضفة.

يقولون إنَّ اللحظةَ التي تسبقُ الموتَ يفهم فيها الآن سان سببَ وجوده. يا ترى ما كان سبب وجودي في حياتي هذه؟ هل كلُّ عذاباتي وحياتي كانت جسراً لولادة عاشقين صغيرين؟ رسم لهم اللهُ حكايةً لا تقل غرابةً عن حمل زوجة النبي إبراهيم العاقر، أو انبثاق ماءِ زمزمَ من تحت قدمي طفل رضيع وسط صحراء لا يشقُّ سماءها طيرٌ ولا تدبُّ فوق رمالها الساخنة بهيمة !

وماذا عن حيواتي السابقة وعوالمي الأخرى، التي قد أكون عشتها قبل ربعِ أو نصفِ قرنٍ أو يزيد، أو ربما ما زلتُ أعيش فيها الآن ، بشخصيةٍ مختلفة.. أكنت معذباً هناك، كما أنا الآن ؟أكنتُ فيها قاتلاً أم قتيلا؟ ألم يعتقد كثيرٌ منّا بخلودِ روحهِ، وتناقلها عبر الزمن من جسدٍ إلى جسد.. أو ربما لحيوانٍ ما، أو شجرة، أو حتى طائر البلشون المكتئب؟ ما سبب وجودي يا الله؟ في هذا الزمن تحديداً؟ فحياةٌ بلا سبب؛ نهايتها موت بلا نتيجة. أين هي تلك اللحظة، اللحظة التي تسبق موتي، فيتجلى لي كل ما خفي عني من أسباب.. أين ؟أفكاري تضرب بعضها في رأسي، وكأنها تتأرجحُ في مقطورةٍ فوق سكة حديد، أو حُشرَتْ

**في خلّاطِ شرابٍ يدوي، تتفكك تمتزج .. وتضيع مني كل الخيوط.**

**البلشون: هو مالك الحزين.**

# (4)

كان ليدها ملمسَ الحريرِ الهندي، يعبق منها عطرُ أزهارِ الياسمين الشامي، أناملها البيضاء الحريرية تداعب خصلاتِ شعرهِ المجعد، وتحاول تفريقها وبعثرتها بشقاوة، أمسك بيدها الصغيرة وجذبها إلى شفتيه الدافئتين، وبدأ يقبل كلّ إصبعٍ من أصابعها، ثم يمرر باطنَ كفِّها على وجهه، ويستنشق عبيرها، كأنه يشمَّ عبيرَ ضريحٍ مقدسٍ، أو رقبةَ رضيع حديث الولادة.

تسمّرتْ عيناه على البريقِ المنبعثِ من عينيها الخضراوين الواسعتين. عينان تشعُّ بضوءٍ وخضرةٍ فاقعةٍ لا توجد حتى في أعين القطط ! تنافس في خضرتها غابات الأمازون، تحيطهما رموشٌ كثيفة حالكة السواد، ويعلوهما حاجبان سوداوان كثّان مثل وترٍ منتصبٍ في قوسه، متأهبٍ للرمي، يحمله سحرهما إلى تلك الغابات البعيدة، يخترقه، يخلع قلبه من صدرهِ وتتوقف حينها عقارب الساعة ويتبعثر الزمن.

كانت عيناها تبتسمان، قال لها:

- ندى، لابد أنَّ ذلك البيتِ الشعر ينظم من أجل عينيك أنت.

انفرجت شفتاها عن ابتسامةٍ عذبةٍ فاقَ سحرها ابتسامةَ عينيها.

فعاود حديثه بشيءٍ من الدهشة:

- صدقيني إنَّ ذلك البيت قيل في عينيك أنت، فلن أصدقَ أنَّ السياب قد رأى يوماً عينين أجمل من عينيك ليقول فيهما:

(عيناك حين تبسمان تورق الكروم... وترقص الأضواء كالأقمار في نهر )

جلجلتْ ضحكتها في الأرجاء، وملأتْ أذنيه بغنجٍ رقيق، ثم سحبتْ كفَّها من بين كفّيه بنعومة، وهمست في أذنهِ بصوتٍ يشبه التغريد:

- كفاك غزلاً وشعراً، إنَّ نظراتك تربكني.

هيا، قم، فقد تأخّر الوقتُ وشارفتِ الشمسُ على المغيب.. لابد أن نلحقَ الباص الذي يمر بعد خمس دقائق من أمام المتنزه، لا أريد أن أتأخر عن البيت حبيبي.

أمسكتْ بكفّهِ وجرّته وراءها مهرولةً بين أشجار الكالبتوس العملاقة، التي تصطفُّ على الجانبين، وتنساب من خلال أغصانها أشعةُ الشمسِ الحمراء وهي تنسحبُ خجلةً خلف الأفق، تاركةً وراؤها سماءً قرمزية داكنة.

كانت تسرع بالجري وهو يلاحقها لكن ساقه ارتطمتْ بجذعٍ مغروسٍ يرتفعُ ربعَ مترٍ عن الأرضِ، لشجرةٍ قطعتْ وبقيتْ آثارها منتصبة. وفي العتمة المتزايدةِ لنهاية الغروب، لم يلحظ حسين ذلك الجذعَ المشرئبَّ، فضربه بساقهِ وصرخ متألما:

ندى، توقفي.. قد جُرِحَتْ ساقي بشيءٍ ما.. ندى، لا لا.. لا تضغطي هكذا على الجرح.. حبيبتي، ابعدي يدك أرجوك... أبعديها... آآآآه.

وفي لحظةٍ واحدةٍ طرقَ سمعَه صوتٌ غليظٌ يصرخُ على عجلٍ فيسحبه من غيبوبتهِ المؤقتةِ ويعودُ بهِ من هذيانهِ إلى واقعهِ الممزوجِ بوجعِ ساقهِ وجلبةِ الرجال الذين يحيطون به.. رجلٌ ما يصيح به:

- ملازم أول (حسين علي تمام )لا تتحرك، ابقَ هادئاً، إنَّ ساقك مهشمةٌ بفعلِ رصاصةٍ أصابتك، ساعدنا كي نوقفَ النزيفَ ونتبينَ موقعَ الضرر.

تمتم بكلماتٍ غير مفهومة، فصاح أحدُ الرجالِ من حوله:

- يبدو أنه يطلب الماء.. حسين أنت عطشان؟ تكلم أتريد ماءا؟ حسين ، ابقَ متيقّظاً أرجوك، حسين...

في لحظةٍ خارجةٍ عن الزمنِ تلاشتْ كلُّ الصورِ من أمام عينيه، صورةُ ندى تلاحقها أشجارُ الكالبتوس الباسقة، وجذعُ شجرةِ المتنزهِ المقطوع. بدتْ تتراءى له خيالات صورٍ لرجالٍ بوجوهٍ سمراء وشواربٍ سوداء طويلة، وشفاه ذابلة، ثم صمَّ السكونُ أذنيه، وملأ الظلامُ الحجرةَ فتماهى الحلمُ والواقعُ في غيبوبةٍ طويلةٍ لم يع حسين كم من الزمنِ دامت ْليجدَ نفسه بعدها ملقىً على سريرٍ في غرفةٍ كبيرةٍ تزدحم برجالٍ كثر، بعضهم يرتدي المعطفَ الأبيضَ ويحمل أنابيبَ وأدوات لم يتمكنْ من تمييزها أيَّ نوعٍ تكون، وآخرون مستلقون فوق الأسرّة وهم ببدلاتهم العسكرية، وأنابيب المصل معلقة في أيديهم، أو تخرج من صدورهم أنابيبُ بلاستيكية شفافة، يمر فيها سائلٌ أحمر يصب في قناني اسطوانية صغيرة مسندة على الأرض، وصوت الصرخات ينم عن ألمٍ عميقٍ ينبعث من كل مكان في الغرفة.

حاول حسين أن يفهمَ ما يحدث، ومن المظهر العام للسقف والجدران، وأشكال الرجال، والأدوات والروائح النفاذة للمعقمات، وكومة الضمّادات والقطن، وأشياء معدنية حادة لامعة؛ تجمّعتْ في ذهنهِ المشوشِ صورةٌ ترجمها العقلُ الذي يستند في تحليلهِ على الشيفراتِ

المخزونة في الذاكرة، وعرّفها له بأنها مستشفى عسكري لمعالجة الجرحى، وقبل أن يحاولَ سحبَ صوته من حنجرته المتخشبة كي يسألَ السؤال التقليدي (أين أنا.. وماذا تفعلون بي؟) شعر بأنَّ السريرَ راح يتحرك وينزلق بسرعةٍ كبيرة في رواقٍ طويل، وانصبَّ في أذنِهِ صوتٌ جشٌّ يصرخ من خلفه بالرجل الذي يدفع السرير قائلاً:

- بسرعة... إلى صالة العمليات الكبرى ... إنه كسرٌ تهشّمي في عظمِ الساق، وقد يكون هناك قطعٌ في الشرايين، ضغطُ دمهِ يكاد يصل إلى درجةِ الصدمةِ، والنبضُ بدا يختفي.

# (5)

أخبروني أنهم حملوني من حيث كنت في المحافظة (ع) إلى المستشفى العسكري في بغداد.
تلك المحافظة المنكوبة التي ذاقت الويلات فقط لأنَّها ولدت بمحاذاة الجحيم، ومن يُولد على تخومِ اللهبِ سيحترق بعضٌ منه لا محال، حتى لو لم يسقط في خنادق النار.
أنا راقدٌ هنا منذ عشرةِ أيامٍ يا ندى، لا بد أنك تظنين الآن بأنني خائن.. خذلتك ولم أكُ شريفاً ورجلاً كما اعتقدتِ. لكن كيف لي أن أخبرك بما حدث ومن يحمل رسائلي إليك؟
هل ستنتظرينني يا ندى؟
مثلما كنتُ دوماً هناك في انتظاري أمام قاعة المحاضرات كل صباح.. تقفين منتصبة بجسدك الذي يقطعني نصفين كضربةِ حسامٍ بتّار لا يرحم، كنت التهمُ تفاصيلك المذهلةَ تلك من بعيد، وحين أوشكُ على الوصولِ أتصنّع دورَ التلميذِ الخجلِ من أن يرفعَ نظره إلى جسدِ معلمتهِ الحسناء. كم اشتقت لسني الجامعة تلك، حيث كنا نحمل الأحلام زاداً، وجذوةَ الأملِ لنا ملاذا.

هل ستنتظرينني كعهدي بك؟ بابتسامتك التي تزهرُ فوق شفتيك المطليتين بلونِ الوردِ في أول تفتّحهِ! شفتاك الممتلئتان الشهيتان وكأنهما نصف تينة ناضجة.

أنا أستغيث في عرضِ صحراءِ المستحيلِ يا ندى، وأستجدي أثداءَ البراري لترضعَ طفلَ حبي البكرِ ولو شيئاً من علقمِ الصبر الطويل.

أرضي اليبابُ عطشى ، وسمائي تظلّلها غمامةٌ كسيحةٌ، وأنا لا أملك شيئاً من مقاومةِ نبتةِ الصبّار وصبرها على الجفاف وقلبي لم يرثْ قسوةَ البدو الرُّحَّل.

هناك من يقول: أن على هذا الكوكب اللعين عليك أن تستخدم كل ذكائك، كي تعيشَ وكل غبائك كي تتعايشَ، فما هذه الأرض إلا رقعة شطرنج، كلهم بيادقُ وأنت الملك، حرّكْهم حسب خطتك ودعْهم يظنون أنك تسير حسب إرادتهم. أعتقد أنني تذاكيتُ قليلاً، ورسمت خطتي لكني إلى الآن لا علم لي كيف ستنتهي اللعبة.

حسناً؛ فلتنتهِ كيفما شاءت، فقد نفدتْ ذخيرتي من الصبر على أية حال.

هل ستفهمين يا ندى أنني قد صمدتُ خمسَ سنوات أقاتل في حرب خدعنا فيها جميعا !.

قد خدعونا بنزاهةِ تلك الحربِ كما يخدعون الصغارَ بكذبةٍ هزيلةٍ فيخبرونهم أنَّ المرأةَ تلد الأطفالَ من سرَّتِها وليس من مكان آخر. يخجلون من تسميته لن، فنصدقهم بخبلِ الطفولة وبراءتها.

لاشكَّ أنكِ ما زلتِ تذكرين ذلك اليوم البغيض يا حبيبتي، فهو مازال عالقاً في رأسي مثل شظيةٍ خبيثةٍ تأبى أن تفارقَ العمقَ وتخرج للسطح، يوم ودّعتك ولحقتُ بأقراني إلى ساحاتِ القتالِ، يومها كان موقعي في الخطوط الأمامية لقطعاتِ المشاةِ المقاتلة. لقد قاتلتُ ببسالةٍ يا ندى، لكنني اكتشفتُ أنَّ تلك الحربَ ما كانت إلا خدعة.

فزعيمنا الذي يحكمنا بالحديد والنار رمى بنا لنكون وقوداً يُحرقُ في لعبةٍ سياسيةٍ قذرةٍ لم نفهمها حتى الآن ، لكنني فهمتها منذ سنواتٍ خلتْ يا ندى. فهمتها بعد أن قاتلتُ دفاعاً عن أمي وعنك وعن النساء والأطفال حيناً، ومدينتي وعن بغداد والشمال والجنوب وكل شبر من وطني حيناً. يمكنك القول أنها لحظةُ وعيٍ حادة.. تشبه الاكتشافَ السحري لما يحيطنا من كره مظالم..

لكن تلك الحقيقة التي أوهمونا بها لم تكن تعني له شيئاً يا ندى، إنها محض كذبة.. إنه يقاتل لترسيخَ مجدهِ الفردي الهتلري فحسب.

هوسُهُ بالخلود لن يتوقفَ حتى لو قُطعتْ رقبةُ آخرَ ذكرٍ رضيعٍ في هذه الأرض المنكوبة،

صدقيني حبيبتي .. تلك هي حقيقة مانحن فيه. إنه جنونُ العظمة لا غير.

هَوَسُ السيطرةِ والخلودِ حتى لو كلَّفَهُ ذلك أن يدفعَ بالشعبِ كلهِ في محرقةِ الحربِ التي طالتْ ألسنتها اللاهبةُ لتلتهمَ غاباتٍ خضراءَ بأكملها.

نحن نذهب لحقولِ الموتِ مجبرين..

وهذا ما يفعله الزعماءُ الدمويون في شعوبهم، إنهم يخالون بأنهم عظماء، لا بل حتى الشعوبِ المسحوقةِ تحت ثقلِ عظمتهم تخالهم عظماءً أيضاً، ويحسبون أنَّ لهؤلاء العظماءِ المتفردين كلُّ الحقِّ في ارتكابِ أبشعِ الجرائمِ دون أن يلقي أحدٌ عليهم اللوم فقط لأنَّهم عظماء منذ الولادة.

ألم تقرئي كيف يهذي ذلك المحمومُ الذي ارتكب أولَ جريمةٍ له في حياتهِ وراحتْ تلاحقُه الكوابيسَ والحمى، ثم هو يحدث نفسَه بأنه رجلٌ غيرُ اعتيادي ويحقَّ له ارتكابَ القبائحِ مادامت تفضي في نهاية الأمرِ إلى السبيلِ، لكل ما

هو عظيم ومفيد للإنسانية، فكانت مفردةُ "الجريمة" في نظرهِ لا تعني سوى خرق القانون، فلا جرائم يرتكبها العظماء، ولو كانت الجريمةُ تستحق العقاب؛ فلابد إذاً من محاسبةِ الكثيرين ممن أفادوا البشريةَ وانتزعوا السلطةَ نزعاً بالقوة، ثم أنَّ هؤلاء نجحوا في جرائمهم، فأصبحوا في نظرِ الناسِ على حق. إن لم تتعرفي عليه حتى الآن ؛ أنصحك بالإسراع في قراءة روايةِ الجريمة والعقاب لمسبار النفس البشرية "دوستويفسكي" ستجدين ذلك المحموم هناك وهو يصفُ نظريته بخصوص نوعين من الناس، العاديين وهم الذين لا يحق لهم إلا الطاعة وغير العاديين أو العظماء، وهؤلاء الذين خلقوا للسيادة، لهم الحق في كل شيء "قد يطلقون المدافع على طولون، أو يحدثون مذبحة في باريس، وينسون جيشاً في مصر ويضحّون بنصف مليون رجل بلا فائدة في حملةٍ على موسكو وهذا ما فعله نابليون، ثم يقام لمثل أحدهم النصب بعد موته، فلهؤلاء يباح كل شيء.. إنهم ليسوا رجالاً من لحم، بل هم من البرونز".

هكذا يفكر الزعماء.. وهكذا ترتكب المذابح، وتشتعل الحروب، دون أن يعي الناس العاديون شيئا.. الناس البسطاء الذين يجيدون التصفيقَ والتهليلَ بعد أن يعلنَ

الزعماءُ النصرَ وتشيدُ لهم التماثيل وسطَنا فورات الدم التي سفكوها.

هل سمعتِ بداءِ السوداء، الذي أصيبتْ به البغالُ في الجبهة الشمالية؟ لا شكَّ أنك تسخرين مني الآن ، وتقولين إنَّ البغال هي محض بهيمة لا تشعر ولا تضجر وإلا لماذا ننعت أحياناً الشخص عديم الشعور بالبغل !!... إن كنت تظنين ذلك فأنت مخطئة حبيبتي...

تلك الحرب الطويلة لم يفلتْ منها مخلوقٌ دون أن يصابَ بلوثةٍ عقليةٍ أو رغبةٍ جامحةٍ في الآن تحارِ أو يختصر على نفسهِ الطريقَ واللغطَ الكثيرَ، فيفتح صدرَهُ للرصاصِ ويسقط صريعَ حربٍ مبهمةِ الدوافع.. نعم يا حبيبتي، تلك البغال التي تشعرين بالقرف منها كانت تملك حسّاً أكثر مما يمتلكه بعض البشر، وحين وصلتْ إلى حدٍّ فاقَ قدرتها الحيوانية الهائلة على التحمل؛ كانتْ تقف على حافة الجبلِ، تنظر نحو المنحدرِ تتأملُ الوادي لحظاتٍ ثم ترمي بنفسها في الوادي السحيق دون أيّ تردد، كانت تنتحر ببسالة! البغال لم تكن غبية، كانت تعلن رفضها لظلم البشر وغبائهم اللا متناهي.

هل تدركين إلى أي مدى يصلُ ظلمِا لآن سانِ يا ندى.. لا لن تدرك يمامةٌ مثلك بشاعةَ هذا العالم، إنه أبشع من وجهِ

قسّ يمارس الشذوذ خفية، أبشع من لحظاتِ الاغتصابِ الجماعي لطفلةٍ مُشرّدةٍ من قبل متسوّلي وسكارى الأزقة ليلاً.

ألـيس بشـعاً أن نمشّـطَ الأراضـي المزروعـةَ بالألغـامِ بـين الحـدودِ بأجسـادِ الحميـرِ، فنتركهـا تـركض علـى التـراب الملغّـمِ تتفجر ويتناثر لحمُها ودمُها ونحن نراقب بعينين وقحتين وليمةَ الحمير تلك؟ ثم نحتفل بنصرنا ونسير على لحمِ الحميرِ المحروق بعد أن صارت الأرض آمنةً خاليةً من الخطر! ما الذي تعرفينه عن بشاعة الحرب يا حبيبتي، بل ما الذي تعرفينه عما يشعر الجندي المخدوعُ بخدعةِ حـبِّ الـوطنِ والـدفاعِ عنـه؟ هـل قرأتِمـا قالـه مـاركيز عـن الوطن؟ أنا أحبُّ ماركيز إنه عبقري ولا شك، لكنني أمقتُ بطلَ روايته "الحب في زمن الكوليرا" لقد كان رجلاً غريباً يعبد امرأةً ويسحقُ تحت قدمهِ الأخريات، كان يعوّض عن خذلان حبيبتهِ له، فراح ينغمسُ بعلاقات جنسية عديدة، حتى تلك الفتاة الصغيرة التي أودعها والدها لديه لم تسلم من قضيبه المشتعل! عشقته الطفلة البريئةُ وسلّمت له جسدَها يمرح فيه كيف يشاء، حتى أوصلها إلى قتل نفسها

والخلاص من حياتها بعد أن تحسّست منه الجفاء، كان بطلُ روايتِه نتناً، رغم أنَّ الروايةَ رائعة.

*من رواية الجريمة والعقاب لدوستويفسكي

نسيت أن أخبرك ما قاله ماركيز عن الوطن، فلقد أخذني التأمل بعيداً مع بطلِ روايته غريب الأطوار ذاك..
يقول: إنَّ الوطنَ خدعةٌ صنعتها الحكوماتُ كي تدفعَ الجنودَ إلى الحربِ مجاناً.
ما رأيك حبيبتي ، هل الوطن خدعة؟
فلنفترضْ أنني ولدتُ في أستراليا، أو كندا، أو الصين، أو أي بلد آخر غير بلدي هذا.. تأمّلي معي ولا تجزعي من ثرثرتي، فأفكاري تطيح برأسي وتثقل كاهلي، تخيّلي أننا ولدنا هناك وشربنا من مياهِ أنهارِ تلك البلاد.. استنشقنا هواءها، وملأنَّا رئاتنا بأوكسجينها، ثم أننا تمرّغنا بترابها وتشرّبنا بعاداتها.. نحمل جنسيتها كمواطنين، عندها أي أرض ستكون وطن لنا؟ هل البلادُ التي ولدنا وترعرعنا فيها، أم تلك التي ننتمي إليها بفعلِ العِرْقِ والعشيرة؟
لا أعتقد أنك تملكين إجابةً لسؤالي، فحتى أنا لا أملك جواباً يشفي غليلي، سؤال يشبه دوامةَ البيضة والدجاجة، أيهما وجد أولاً في هذه الحياة، أو هو يشبه مولودٌ له اثنان من الأمهات، أمه التي حملتْ به فحسب، وهو ليس من خلاياها بل كانت رحماً حاضناً له لا أكثر، كان بيضةً مخصبةً من مبيضِ امرأةٍ لا تمتلك رحماً، تحلم هي وزوجها بطفل، تلاقح حيوانُه المنوي مع بيضتها، وزرعتْ

في رحم امرأةٍ أخرى، وهكذا ولد الطفلُ من رحم امرأةٍ وتغذّى على حليبها وتشرّب رائحة جسدها، ثم وجد نفسه قد غادر حضنها عنوةً، وطواه حضن أمه البيولوجية *صاحبة* البيضة يا ترى من سيكون وطنا لذلك الطفل ذو الأمين.. من منهما تستحق ولاءه؟

لكن لماذا أشغل رأسي المتعب بهذه الترهات؟

قد فقدت حماستي يا ندى، لأنَّني اليوم لا أجد مبرراً لتلك الحربِ وامتدادها كل هذا الأمد سوى الجنون والهوس بالخلود، اكتشفتُ أننا جنودٌ في لعبةِ شطرنج على طاولاتهم، يحركوننا وفق رغباتهم كي يشبعوا غرورهم البغيض..

فالرجال يقاتلون دوماً للدفاع عن شيء مقدس يؤمنون به، لكن حين نكتشف أننا جنودُ في لعبة شطرنج؛ ستفقد البلادُ رجالها.

أطلقتُ الرصاصةَ على قدمي، كنتُ أريد أن أحدث خراباً مقبولاً إلى حدٍّ ما، كي أنسلخَ من جنونِ حربٍ لم أعدْ أقوى على مواصلتها، لكن يبدو لي أنَّ حتى الرصاص الذي زودونا به يحمل جنونهم وحبهم للخراب، فقد هشّمتْ تلك الرصاصة الملعونة ساقي، وأقعدتني هنا مربوطاً

بأنابيب المصل والدم، معلقَ الساقِ المهشمةِ عظامها، قد حاول الطبيبُ ترميمَ الخرابِ في ساقي، ثم وضعوها في قالبٍ من الجبس الأبيض، الذي كتبت عليه أول حرف من اسمك (ن) يا نون نسوتي كلَّهنَّ، وقطعتي الناقصة.. وفيك أكتمل.

آه.. لا أدري متى يمكن لذلك الخراب أن يرممَ نفسَه من جديد، قد أخبرني المقدّم سامر وهو الجراحُ المسؤول عن العلاج هنا، أنني ربما أستغرق عدّةَ شهورٍ لتحاولَ عظامي المهشّمةُ التماسكَ، ويمكنني الوقوفَ على ساقي مرة أخرى. لكنني اشتقتُ لغاباتِ النخيلِ في عينيك، ولون اللوز الناضج في حدقتيك اللامعتين ..

ها قد طرّزتُ صفحتين كاملتين من صفحاتِ دفتر الرسائل.. كتبتُ لك تفاصيلاً لا شك أنك تجهلينها، لا تخذليني يا ندى.. كوني وفيةً لحبنا، وابتهلي إلى الله ليمنحني القوة كي أعود..

سأحاول أن أجد شخصاً أثق فيه يحمل رسالتي إليك.

**نلتقي قريبا يا عصفورتي**

**وداعا**

**حسين**

لكن ما هذه الجلبة هناك ؟
صوتُ ركلةٍ قويةٍ على الباب أدّتْ إلى فتحها على مصراعيها، وارتدادُ ظلفتيها بسرعة لترتطم بالجدارِ الصقيل خلفها.
حوّلت نظري باتجاه تلك الجلبة.. إنهم أربعةُ رجالٍ قد اقتحموا الردهة التي يرقد فيها الجرحى، ها هم يتقدمون نحوي بالتحديد يتوسّطهم رجلٌ أربعيني طويلُ القامة، مفتولُ العضلات، شديدُ السمرة، يتدلى شاربه الأسود اللامع على شفتيه من الجانبين، حتى يكاد يلاصق ذقنه الحليقَ. ويتبعه الرجالُ الثلاثة ببدلاتهم العسكرية، وشواربهم السوداء الداكنة التي تشبه شاربَ قائدهم لكنها أقصر منه بقليل، ربما قصروها احتراماً وتبجيلاً لشاربِ قائدهم الطويل المتدلي.
إنهم يحيطون سريري، هم الأربعة وانتفاخ مسدساتهم التي في قرابها يظهر بوضوحٍ على الأحزمةِ الجلدية السوداء، الممسكة بسراويلهم العسكرية القاتمة.
فوق الحافة المعدنية للسرير وضعَ الرجلُ الطويلُ قدمه اليمنى، واستندَ باسترخاءٍ تام على الأرض بقدمه اليسرى..
كان لمعانُ حذائهِ الأحمر يشبه نصلَ سكينٍ حادٍّ ملطخةٍ بالدم.. ومثله كان لمعان أحذية رجالهِ الثلاثة الحمر.. والتي

تشبه في مظهرها حذاء الرئيس الأحمر.. فقد كانوا جميعهم نسخةٌ مصغرةٌ من الرئيس.. بدلاتٌ زيتونيةٌ نظيفةٌ، أنيقة، أحذيةٌ حمرٌ لامعة، وجوهٌ يطلُّ منها التسلّطُ والتجّهمُ والخيلاءُ، تعلوها شواربٌ سودٌ وأذقان يُولغ في حلقها وتلميعها.. نعم الكل كان معجبٌ بالزعيم ويضمر له الكراهية في الوقت ذاته، الكل صار مولعٌ بالسلطة، ويتمنى لو كان هو الزعيم بتلك الرهبة التي يلقيها حضوره في النفوس، وبتلك القصور المتناثرة في كل مرتفعٍ ومنخفضٍ في هذا البلد. قصورُ الرئيسِ التي يخدم فيها أبناءُ الشعبِ ويسهرون على راحة الرئيس، الوطن للرئيس وعائلةِ الرئيس وعشيرةِ الرئيس.. والقبور للشعب.

كان الرجلُ الطويلُ ينظر بعينين محمرّتين متوقدتين إلي، ثم أخرج علبةَ سجائره نوع "مارليبورو" غير مستعملة، فتحها برفقٍ كأنه يداعب خصلاتِ شعر فتاتهِ الخجلةِ ليزيحها عن وجنتيها.

أخرج من العلبةِ سيجارةً وأشعلها بولاعتهِ الذهبية المزركشة، وسحب نفساً عميقاً ثم نفثه بزفرةٍ قوية، فتصاعدتْ حلقاتُ الدخانِ الرمادية مكونةً غمامةً صغيرةً فوق رأسه الكبير، كنت أتطلع إليهم بعينين زائغتين مجهدتين.

رمقني الرجلُ الطويلُ بنظرةٍ عميقةٍ ثم قال بصوتٍ داعرٍ تنفلتُ نبراتُه مثل موسيقى تعزفُ بيد عازفٍ غاضبٍ على أوتارٍ تالفة:

- هل تتلاعب بنا يا ابن السافلة؟! أتطلق الرصاصَ على ساقك، ثم ترقد هنا كرجلٍ باسلٍ جريحٍ شريف!.

ثم التفتَ إلى رجالهِ الثلاثةِ وأمرهم أن يحضروا الخائنَ إلى السيارةِ العسكريةِ التي تنتظره في رواقِ المستشفى حالاً.

وقبل أن يكملَ أوامره دخل الطبيبُ المناوبُ مسرعاُ وهو في حالةِ فزع يتبعه أحد الممرضين، ثم وقف على مسافةٍ قريبةٍ من السرير بذهول يرقب ما يحدث.

فأشار إليه الرجل الطويل بإصبعه قائلا:

- اخلعْ عنه أنابيبَ المصلِ والدم أيها الطبيب، فهذا الخائن لابد من أن يودّع السجنَ العسكري الآن للتحقيق معه.

تردّد الطبيب قليلاً في الجواب ثم خرج صوته متحشرجاً من بين شفتيه وأجاب بحذر شديد:

- لكن الرجل مصابٌ بكسرٍ شديد، وخطرٍ في ساقه، وقد نزف الكثير من الدم، ونسبة دمه الآن متدنية، وأيضاً أيُّ حركةٍ للساق قد تصيبه بضرر وعطل دائم فيها.

كرر (الرجل الطويل ذو الشارب الأسود الطويل اللامع المتدلي) كلماته على الطبيب لكن هذه المرة بنبرة تشوبها العدوانية ويغلفها شيء من التهديد:

- افعل ما نقوله لك يا دكتور.. ولا تحشر انفك فيما لا يخصك، وإلا...

أسرع الطبيبُ بنزعِ أنبوب المصلِ المتصلِ بيدي اليمنى، وأغلقَ أنبوبَ الدمِ الخارجِ من كيس الدم البلاستيكي المعّلق على حمالة معدنية لتعليق الأكياس، والواصل إلى ذراعي اليسرى لتعويضي عن الكميات الكبيرة من الدم المفقود، ثم أنزل ساقي الموضوعة في قالبٍ جبسي والمعلقة بأحزمة جلدية خاصة إلى أنبوب معدني في مقدمة السرير وحين أكمل عمله نظر إلى عيني نظرةً أخيرة يشوبها الأسى والحسرة، ثم تنحّى جانبا فاسحاً الطريق للرجالِ الثلاثة للقيام بعملهم.

رفعوني بأكفِّهم وأذرعِهم الصلبة، وجرّوني بسرعة، كأنني كيسَ قمامةٍ متعفنٍ، فلم يبالوا للصرخة التي أطلقتها من حنجرتي عندما ارتطمت ساقي المكسورة بحافة السرير، وهم يسحبوني خلفهم، شقّت تلك الصرخةُ جوفَ الليلِ الكئيبِ في المستشفى العسكري، فالتفت إليّ الرجل

الطويل (ذو الشارب الأسود الطويل )ولطمني على وجهي صارخا بي:

- اخرسْ يا كلب.

كنتُ من خلالِ فزعي وضعفِ جسدي أحاول التركيز على وجهِ كبيرهم الذي أمر الرجال بسحبي مثل كلبٍ أجرب، كنتُ أريد أن أحفظَ ملامحه في ذاكرتي.. لكنه توقف فجأةً وسط الغرفة، فتوقف خلفه رجاله، وأنا بينهم يتكوّم نصف جسدي على الأرض، كان قائدهم يرفع كفَّه ويمسح قبضته في الهواء بحركات دائرية، يبدو كالمجنون وهو يحاول القبض على الفراغ، لكن كفه أمسكتْ بشيء صغير، شيء بجناحين، فأحكم قبضته عليه، ثم هرسَهُ داخلها، وضحكة عالية تشبه في رنينها ضحكةً تعوّدتْ آذاننا على سماعها من التلفاز كل يوم حتى صار رنينها هو النغمةُ العامة لضحكات ذوي البدلات الزيتونية الأنيقة، ثم فتح قبضته على سعتها ونفض منها ذلك الشيء على الأرض، وقبل أن يسحقه بباطنِ حذائه الأحمر، لاحت لي الجناحان، كانت فراشة بجناحين صفراوين مبقّعة ببقعٍ سوداء، فراشة أظلّت الطريق وراحتْ تحلّق في فضاء ردهة الجرحى، الفراش أخرس لا يصدر طنينا، مخلوقٌ قصير العمر، لم أسمع بأحدٍ يتلذذ بهرسِ كائن مسالمٍ كالفراشة، ولم أرَ

بهجةً تطفحُ من وجهِ قاتلٍ كما رأيتها على وجهِ هذا الرجل وهو يسحق تلك الجناحين البريئتين تحت حذائه، فيتناثر فتيتهما الأصفرُ المذهّبُ مثل خيوطِ النورِ على سطح المقصلة.

كانت السيارةُ العسكرية تنتظرُ بسائقها أمام الباب الداخلي للمستشفى، واقفة في الباحة، جلس كبيرهم جنبَ السائق في المقعد الأمامي، وحشرني الرجال الثلاثة في الحوضِ الخلفي للسيارة بينهم، وعصبوا عيني بقطعةِ قماشٍ سوداء، بها رائحة عفنة، وانطلق السائق بحركةٍ بهلوانية زئبقية خارجاً من المستشفى يلتهم الطريق العام التهاماً.

كنت أتبيّن تعرجاتِ الطريقِ ومطباته وأشمُّ رائحةَ ذراتِ الغبارِ المتسللةِ من فتحاتِ النوافذِ للسيارةِ الصالون، لكن ضيقَ المكانِ وبنيتي الضعيفة ورائحة العفنِ من العصّابةِ السوداء التي غطّتْ عينيي وتهدّل بعضٌ منها على أنفي أصابني بغثيانٍ شديدٍ وتقلّصٍ في المعدةِ، ثم بدا نبضي يتسارعُ وشيئاً فشيئاً تلاشتْ كلُّ الأصواتِ من حولي، وعتمةٌ حالكةٌ منطلقةٌ من العصّابة توزّعتْ في كل زاويةٍ من جسدي، وتقاطرَ عرقٌ باردٌ من صدغي ورقبتي.. كنت أشعر وكأنني أسافر إلى عالمِ الصمت والسكونِ حيث نهاية الأفق.

# (6)

## (الجسر 2015)

كنت على يقين أنَّ القدرَ إن كان له وجودٌ فهو خسيسٌ ظالم، يسحبنا نحو العمق في بحر لا قرار له ولا شاطئ. لكنني ولأول مرة أعلم أنَّ القدرَ مهرجٌ، يجيد لعبَ الورق، ويحترفُ اللعبَ بالبيضة والحجر، وساحرةٌ شمطاءُ تيبّس جلدها، وحفرتْ الأخاديدُ البشعةُ وجهَها الكالحَ وهي تسوق الرجال بعصاها السحرية الفاجرة، وتجبرهم على مضاجعة جسدها النتن.

لا بل القدرُ أكثر عهراً وبشاعةً مما وصفت.. إنه يتلاعب بي، فبعد أن فقدتُ ما فقدتُ جاء اليوم يلعب معي دور الممرضة الحنون! يحمل البلسمَ في صحنٍ من نارٍ ليطببَ به جراحي! ياله من سافل.

يأتيني اليوم بندى، ويقفُ في زاويةٍ يحدّق بي، وهو يبتسم ابتسامةَ ظفر، وكأنه يقول لي هيا اخترْ الآن بين روحك وقلبك. لن أتركَ لك الاثنين معا..

أهكذا وبكل تلك القسوة يسوقكِ القدر، لتدخلي منزلي الذي لم تدخليه حينما كنتِ منيةَ النفسِ والروحِ يا ندى!

أهكذا تضعين الملحَ في جرحٍ يأبى أن يندمل!
يا ترى ما تراني فاعلٌ في مأزقي هذا؟ هل أقبل عودتك بيننا وأبارك زواجَ ولدي الذي وضعه القدرَ مثل طعمٍ ليصطادَ به سمكةً سيئةِ الحظ، أثقلها سمٌّ بطيء، فراحتْ تترنّح في وجهِ صيادها لا هي قادرة على الهرب، ولا هو يرحمها، فينتزع الطعمَ العالقَ في سقفِ فمها ليتركها حرة طليقة تموت بكرامة. لا يشهد عذابها أحد، وهي تتقلب وجعاً والسم يغلي في عروقها.
قد أجد وسيلة للرفض.. نعم، فما حدث لولدي علي قبل شهر من الآن كفيلٌ بأن يبررَ رفضي لمكوثهِ في البلد، قد أتمكن من أقناعهِ بالهجرة، وبهذا أكون قد أصبتُ عصفورين بحجر.
لكنه عنيدٌ لا يلين بسهولة، ورث عني عنادي وطول قامتي وأشياء أخرى.
أو قد أستطيع إقناعه بأنه يتوهم الحب، إذ كيف يمكن لإنسان أن يميز الفارقَ بين الحبِّ ووهم الحب، أو بين توهّم نقص الحب، وبين نقص هذا الحب فعلا.. في عالم المشاعر لا يمكن التمييز بين الواقع والوهم.
لكن بالي من عجوز وغد، رأسي تدور فيه فكرة حقيرة لتفريق قلبين عاشقين، ولِمَ كل ذلك ؟ لم أتصرف بهذه

السفالة! لِمَ يدفع العاشقان ثمنَ ضعفي وانعدامَ مقدرتي على الصبرِ في حضرة من أمسكتْ بتلابيب القلب ونياطه؟! ثم ها أنا ذا.. أخترعُ نظرياتٍ وفلسفةً عن الحب والوهم، وأفكر بإدخالها في رأسِ ولدي، وكأنني لم أضاجعْ ذلك الحب اللعينَ بروحي وجوارحي حتى صار قطعة من كياني وجسدي، حتى أنني قد أموت باستئصالها ونزعها عني.

أشعر بالعار من أفكاري هذه، وكأنني أنزل من سلّم القفاز، نعم هكذا تماما، مثل ذلك العجوز الذي قصَّ عليّ حكايته المخجلة يوما، حكاية لا تصدق، قال لي وهو يقهقه:

صعدت مرّةً السلمَ في مسبحٍ كبير، لأقفز من تلك القمة العالية، وأشقُّ بجسدي الماءَ، لكن لسبب ما امتنعت عن القفز، وربما أعزوه لغرابةِ الموقف، ورهبةِ الصعود للقفاز، والوقوف هناك عالياً ناظراً للمياه الزرقاء في الأسفل، حيث يسبح الأولاد مطلقين ضحكاتٍ وأصواتً غريبةً نحوي، إنهم يتحدونني أن أقفز وأمهاتهم يختلسن النظر إلى عضوي المنكمش تحت ملابس السباحة، ثم يقهقهن من ذلك العجوز مجعّد الجلد، حينها قرّرت الجلوسَ في باحةِ القفاز الصغيرة، بين السلم وعتبة القفز، متشاغلاً بشربِ علبةِ كوكاكولا، ولعبِ الورق مع نفسي، وهكذا بقيت

ساعتين في الأعلى وسط نظرات الجميع الباحثة عن سبب جلوسي كالمعتوه هناك، ثم نزلتُ من السلم مطأطأً رأسي، والخجل يتسرّب عبر مساماتِ جلدي مع العرق المالح، وهكذا كان عليّ أن أتراجع، ربما كانت حماقةً مني، فلم يكن بوسعي فعل شيءٍ إلا النزول من جهة السلم، هل جرّب هذا الإحساس أحدٌ يوما؟ صدقني إنه أحساس بشع، الكل يسخر منك، كثيرٌ من الناس تجري معهم الأمور عكس توقعاتهم، تلك هي الحقيقة.

رأسي يكاد ينفجر، صداعٌ يشقّه إلى نصفين، ويثقل أذني الصخب الضاج من حولي، وكأنه خلية نحل بطنين غير مألوف.

كم يزعجني هطولُ الرصاص الآن على الجسر.. إنه يقطع عليَّ خلوتي التي أبحث فيها عن مخرجٍ لمأزقي.. لا أحد غيري هنا.. أنا والجسر والرصاص...

أنا أتصرف بغرابة هذه الليلة، غرابة شديدة! فمن المفترض أن أهرب الآن من الرصاصِ قبل أن تجد واحدة أو اثنتان سبيلها إلى رأسي أو صدري، لكني أجلس هنا غير مبالٍ وكأنَّ ما يهطل الآن هو فتات أوراق أزهار مجففة، هل سئمت الحياة أم أعتدت الموت!

الموت ! كيف سيكون يا ترى ؟ مؤلمٌ، أم رحيم، أيشبه النوم، أم يشبه عذاب الزنزانة؟
ما هذا السخف؟ وماذا يهمُّ إن كان قاسياً، أم رحيماً، ما دام المرء سيموت؟
آه.. رأسي يؤلمني، أشعر بدوارٍ وغليانٍ في جمجمتي، وسائلٍ لزجٍ ينضحُ من مؤخرةِ رأسي، ويسيل على عنقي، آه.. لابد أنَّ نسياني لوجبةِ الغداء هبّط بالسكر في دمي، حتى بدأت بالتعرّق والدوار.. قواي تخور لا يمكنني التماسك أكثر، سأحاول الاستلقاء قليلاً ريثما أستعيد توازني.
أسدلت جفني.. بقيت ممدداً على أسفلتِ الجسر حتى شعرت ببعض الراحة.. لا بل أكثر! طاقة عجيبة تندفع في عروقي، نشاطٌ غريبٌ يدبُّ من أخمص قدمي وحتى قمة رأسي، لا أشعر بشيء مطلقا، لا صداع، لا ألم، أنا أحلّق مثل طائر، أو مثل ريشةٍ في رياح شمالية.
قمت من رقدتي ومشيتُ قليلاً، بدأت أهرول.. خفةٌ لذيذةٌ تتملّكني، حتى ساقي المعاقة تركل الهواء، كأنَّ عصا سحرية أصابتني بطرفها، فانتزعتني من ذلك الكائن العبثي الخاوي وقذفتْ بي في رحابِ الكونِ أفردُ ذراعي مثل جناحي طائر عملاق، قوة غريبة تلبسني..

التفت يميناً ثم شمالاً.. هناك ألوان في كل مكان، أعود وألتفتُ يميناً على صدى صوتِ حنون شفيف، غناءٍ عذب، أقترب قليلاً من مصدر الصوت، إنه يأتي من امرأةٍ تقف هناك، تدير لي ظهرها، مبرقعة بالسواد، لا أكاد أتبيّن ملامحها، صوتها يسحبني نحوها فأقترب، تلتفت نحو، تبتسم.. رباه! أنها أمي.. الذهول يقبض وجهي، أسالها ما أنت فاعلة هنا يا أمي ؟! قد واريتُ جسدك الثرى بيدي هاتين منذ عدة سنوات! لا تجيب، تبتسم، تنظر لي بعينيها الصافيتين، اللتين كانتا تضيئان وتفيضان رقةً وبساطة، فتحيطا قلبي بهالةٍ من الطمأنينة، ألمس وجهي، أحاول التأكّد من يقظتي، نعم أنا هنا هو ليس حلماً بالتأكيد، تسحبني أمي من يدي وتومئ برأسها أن أتبعها.. تدخل إلى منزلٍ لا أعرفه، تدفع بابه بكفها، تدخل، أدخل خلفها.. أجد نفسي في غرفة مربعة لم أزرها من قبل، ألتفت خلفي، أبحث عن أمي، لا أحد خلفي.. غادرت كما أتت... تركتني بمفردي ورحلت، وقفتُ للحظاتٍ أجوب النظرَ في غرفةٍ تتناثر فيها أرائكٌ رماديةُ اللونِ، هناك امرأة تجلس على مقعد منفرد، لا أرى سوى الجانب من وجهها.. جميلة في جذوة الصبا، تلوح في وجهها علامات القلق والألم العميق، كانت ترتدي ثوبَ نومٍ رثٍّ قديم، يلوح

من مظهرها لونُ الفقر، غير أنَّ في وجهها لمحةُ كبرياء، واعتداد بالنفس وسحرٌ لا يقاوم، كأنها أميرةٌ في سجنها البعيد، ترفل في ثوب الفقر، دون أن ينتقص ذلك من بهائها، أو يمسَّ هيبتها ..

أدقق النظر.. إنها تشبه شخصاً أعرفه، أغير مكاني.. أقف قبالتها.. أصرخ .. أناديها.. ندى.. أنظري إليّ.. تتجاهلني، تطقطق أصابع يدها البيضاء، وتطيل النظر لزاويةٍ في الغرفة، أشعر بالغرابة، أعود فأنزوي في ركنٍ بعيد وأراقب.

أراها تضع ساقاً على ساقٍ، وأسنانها الصغيرة المصفوفة بانتظام، تطبق على حوافِّ أظفار أصابع كفها الأيمن، كانت تقرض أظفارها بتوترٍ متزامنٍ مع اهتزاز ساقها العصبي، وعيناها مسمرّتان على الهاتف الأرضي الذي يقبع في الركن مسترخياً في سلّةٍ بلاستيكية حمراء اللون، ترهف السمع لأي رنة قد يمنُّبها عليها بعد سكونه الطويل.

رنَّ الهاتفُ معلناً تعطفُه عليها، فهرولتْ والتقطتِ السماعةَ بيدين مرتعشتين، وبصوتٍ متلهفٍ ردّتْ:

- ألووو

- ألوو.. من ندى؟ أهلا حبيبتي كيف حالك؟

- أهلا خالتي، بخير الحمد لله

- ما بك ندى، صوتك يشوبه الحزن والكآبة! هل حدثَ مكروهٌ لك يا ابنتي؟

- لا خالتي، أنا بخير صدّقيني، لكنني متعبةٌ من العملِ وكنتُ في طريقي لأرتاح قليلاً في غرفتي.

- حسنا يا ندى، أين هي أختي، ناديها لي يا ابنتي من فضلك.

- حالاً خالتي، إنها في غرفتها، انتظري لحظة فقط سأناديها.

أمي.. أمي.. خالتي سناء على الهاتف تطلبك.

خرجتْ من الغرفة المجاورة لغرفةِ الجلوس امرأةٌ بيضاءُ البشرة، متهدّلةُ الصدرِ، ممتلئةُ الردفين والفخذين، يتجاوز سنُّها العقدَ الخامس بقليل. رفعتْ كفها لتمسحَ عن عينيها آثارِ نعاسٍ ظلت معلقة في أهدابها، فقد أيقظتها ندى من قيلولتها المقدسة، قبل أن تستيقظَ منها لوحدها، مشتْ متكاسلةً نحو الهاتف وأمسكتْ بالسماعة، وما أن سمعتْ صوتَ سناء أختها التي تصغرها بعامين؛ حتى انشرح صدرها وانفرجت أساريرها، ودخلت في حديث وثرثرةٍ طويلة مثل كل يوم.

انسحبتْ ندى على عجلٍ وصعدتْ الدرجات إلى الطابق العلوي، حيث غرفتها وأغلقت خلفها البابَ، وحين

وجدت نفسها وحيدةً رمت بنفسها على سريرها الخشبي ودفنت وجهها بين ملاءاته البيضاء، وأجهشتْ ببكاءٍ حارقٍ مثل حممٍ بركانيةٍ كانت محتبسة، فوصلت إلى حد الآن فجار في هذه اللحظة.

كانت كفُّها تضرب بقوةٍ على الفراش، ومن بين نشيجها يخرج صوتها مختنقاً "خائن.. خائن أنت يا حسين.. كنت تكذبُ طوال تلك السنوات، ولأنَّني حمقاء صدقتك".

ندى لا تسمعني ، أصرخ بأعلى صوتي، لم أخنكِ، أنت لا تفهمين يا ندى.. انظري إليَّ فقط كي أشرح لك ما غاب عنك، هي لا تنظر، لا تسمع..

أنا أراقب، ينهكها البكاء، تغمض عينيها وتغفو.. أراها تحلم، أدخل حلمها، أتسلّلُ حيث هي وأنا، حيث كنا.. هي تجلس بجانبي وأنا ببزتي العسكرية..

نجلس هناك على أحد المصاطب الخشبية، نراقب الأمواج، تظللنا الأشجارُ الوارفةُ، ويعبق نسيمُ النهرِ الرقراق ذو المياهِ الزرقاء الجارية مع أول ساعات الصباح، حيث يتنفّس نهر دجلة مجدداً عهده مع الأيام والنوارس البيضاء، وهي تنتظر خيوطَ الفجر الأولى، لتفرد أجنحتها العاجية وتظلُّ ترتفع مشكّلةً دوائر في سماء النهر الصافية، حيث ملتقى العشاقِ تتحد أرواحُهم هناك كل صباح،

وتتشابك الأيدي التي تحمل جمرة الاشتياق، كان صباحاً خريفياً بشمسٍ تختبئ خجلةً بين الغيوم.. عشاق حولنا..
طلاب مدارس بزيّهم المدرسي، طلبة الجامعة، صبيةٌ بعباءةٍ سوداء، وشاب على محيّاه شمسُ الجنوب، امرأةٌ ورجلٌ في الثلاثين هربا من أولِ ساعةٍ للعمل ليملآ قربتيهما بشيء من الحب الذي يزدريه المتطفلون في غرف الدوائر الحكومية الطافحة بالنفاق، نورسان أبيضان يتلقّف أحدهما فتاتِ الخبزِ الملقى إليه، ويضعه في فمِ نورسٍ أشدَّ بياضاً يبدو أنها أنثاه، لا يجد الحب السلام إلا قرب النهر.
النهر الذي ظل يقاوم بجريانه لهيبَ الحربِ، فكلما طالتِ الحربَ؛ ارتفع عددُ العشاق ارتفاعا طردياً.
كانت أشعةُ الشمسِ تنعكس على صفحةِ الماءِ، فيبدو النهر فضيّاً لامعاً، وسماءً فضيّة تغلّفُ سقفهِ تطرزها غيماتٌ بيضاء، تتشكل منها صورٌ خياليةٌ لوجوهٍ باسمةٍ، وأجنحةُ طيورٍ وبجعات بمناقيرَ صفراء، وفراشات وأطفال بوجوهٍ ثلجيةٍ تعلو رؤوسهم الملائكية حلقاتٌ بلونِ الذهبِ، لوحة ربانية تعج بالحياة.
أذكر ذلك الصباح الأخير، كانت آخر مرة التقيها فيه، أخبرتها أن مهرها الآن بحوزتي، وبثقةٍ كبيرةٍ سأطرق بابها في الساعة السابعة من مساء يوم الخميس من إجازتي

المقبلة، أطلب منها أن تخبر والدتها بالأمر، أقبّل يدها، ننهض، نسير وكفّانا متعانقتان، أوصلها حيث سيارة الأجرة، أدفع عنها أجرة السائق، وأغلق الباب خلفها، ألوح لها بيدي مودعاً.. تبتعد سيارة الأجرة، وأعود.

أدخل حلماً آخر.. ندى تئن، تحاول الاستيقاظ، لكنها تغطُّ في النوم مرة ثانية..

كانت تقف في نفسِ المكانِ، في غرفةِ الجلوسِ المربعة ذات الأرائك الرمادية..

تدير قرص الهاتف، يتكرر المشهد، كل يوم.. رقمُ الهاتف على قرصِ الهاتف الأرضي هو رقمي أنا.. ندى تنتظر الرد على الخط دون أن تتكلم، تحاول التنصتَ.. من الذي سيجيب على الهاتف في الطرف الآخر..

كان الصوت الذي يجيب هو صوت أختي الصغيرة مرة، وصوت أخي عدة مرات. تتلاحق الصور والمشاهد تعيد نفسها أمامي مع فرق تغيّر الوقت فقط.. ندى تقف، تطلب الرقم.. أخوايهما من يردّان، تغلق الهاتف، تبكي، السماء خلف النافذة كانت تتبدل.. صافية، مغبرة، قرمزية، غائمة، لازوردية.. ينتهي الحلم، تستيقظ ندى، تفكر، تسرح في متاهةٍ بعيدة، ألحقها وأدخل متاهتها أراقب وأستمع، كانت تتمتمُ بصوت خفيض:

أنا بين هذا الضياع، وبين سياط أمي التي تلسعني كل حين لتذكر نيب سنوات العقد الثالث من عمري، وأنا أقرضها وحيدة، مصرةً على رفضِ كلِّ عريسٍ يتقدم لخطبتي، أمي تصفني بالساذجة لأنَّني أحرق شبابي في انتظارِ عريسٍ معدمٍ يعيل والدته وأخويه اليتيمين، وفوق هذا فهو لم يفِ بوعده ولم يحضر لخطبتي.

فما الذي يمكن ليأن أفعلَ، وكيف أتصرّفُ، لأنَّجو من هذه الهوّة العميقة التي سقطت فيها؟ هل أنتظره.. لكن أين هو!؟

هل يجب علي أن أصدق بأنه خانني وهرب، لكن قلبي يرفض التصديق هل أوافق على الزواج من ابن خالتي؟ أنه يلح في طلبي منذ سنوات، رتبته العسكرية المرموقة، منزله الواسع، يشكلان هوساً وسحراً يظلّلا بصيرةَ أمي، لكن أن وافقتها؛ سأستريح من سياطها اللاذعة التي تجلدني صباح مساء، وتذكرني أنابني خالتي يعيش في بحبوحةٍ كبيرة، ومنزلٍ مترامي الأطراف في حي اليرموك في بغداد، حي القصور الكبيرة، والأشجار الوارفة، والحدائق اليانعة المنسقة. أمي تعيد تلك الاسطوانة المشروخة على مسامعي ليل نهار، تكلّمني عن هيبةِ الرتبةِ العسكرية والسيارة الحديثة بسائقها والتي ستكون تحت

تصرفي متى شئت، ثم تذكرني بفضل الخالة سناء وابنها، وكيف كانت أياديهم البيضاء تُمدُّ لنا بالمساعدة الشهرية بعد موت والدي:

- هل نجازي أختي سناء وابنها ووقوفهم إلى جانبنا طيلةَ تلك السنوات بهذا الجفاء يا ندى؟!

"هذا ما تقول أمي طيلة الوقت"

أراقبها، أراها تغرق..

تغالب هواجسها والآن كسار الذي يعصف بروحها ويرميها على جادة اليأس.

ندى تغرق في دوامة تسحبها إلى الأسفل، تبتلعها مياه البحر، تجرها نحو العمق السحيق، فستة أشهر ليس بالوقت القصير، قد غبتُ عنها دون أن تعلمَ عني شيئاً، فقد خمشت أظافرُ الفراقِ خدَّها الطري، الذي سلبته الهموم كل ذلك البهاء والزهو الذي أعرفه. كانت تتكور على نفسها مثل قطةٍ مهجورةٍ تضعُ راحتيها تحت خديها وتلتفُّ على نفسها بخذلان واضح.

حين يكون العشق كبيراً؛ يكون الغضبُ والألم أكب، وأعذار الغياب تبدو مثل أوراقِ الخريف المتساقطة، منتهية الصلاحية، ويكون شعورنا مثل من يمسك شيكا بمبلغ كبيرٍ، لكن الرصيد مفلس.

# (7)

رفعت رأسها المدفون بين الوسائد، ومسحتْ بكف بيضاء كالحليب وجهها، الذي غسلته الدموع، كانت قد عزمتان تكونَ جريئةً هذه المرة، ولتذهب التقاليد إلى الجحيم، نزلتْ درجات السلم الحجري، طاوية إياها مثنى.. مثنى، ودخلت إلى غرفة الجلوس، حيث كانت خاليةً بعد أن انسحبت والدتها إلى المطبخ لتضع إبريق الشاي على النار، بعد أن انتهت القيلولة.

أمسكت ندى بسماعة الهاتف، وأدارتْ القرصَ بأرقام حفظتها عن ظهرِ قلب منذ شهق قلبها بالوجدِ لأول مرة.. نظرةُ غضبٍ ممزوجةٍ بقرارٍ غامضٍ تلوحُ في خضرة عينيها الزمردتين. انتظرت حتى رنَّ الهاتف في الطرف الآخر من الخط حين رد الصوت المتعب المبحوح:

- أللووووو

- مرحباً، كيف الحال؟

- أهلا يا ابنتي، من أنتِ؟

- عفواً خالتي.. أنا زميلة حسين مذ كنا في الجامعة.. واليوم وأنا أرتب أوراقي القديمة والصور الجامعية عثرتُ على أمانةٍ لحسين، كان قد حفظها عندي، ولعن اللهُ

الشيطانَ، فقد نسيت أمرها تماماً طوال تلك السنوات ولم أقم بإرجاعها.

- حسين.. آه يا ولدي.. آ ه يا حسين .. ..

ماهي الأمانة يا ابنتي؟

إنها أوراق ونفيها حسين أشعاره.. تعلمين إنه كان شاعرا بخيال لا مثيل له.. طلب مني أن أوصلها إلى ابنةِ عمي التي تعمل صحافية في مجلة ألف باء، وأن أطلب منها مساعدته بنشرها في المجلة " كانت ندى تسخرُ من نفسها وهي تفتعلُ تلك الكذبةَ وتلقيها على مسامع المرأة العجوز المسكينة، فمن يا ترى يصدق كذبةً غبيةً كهذه! ومن الأحمق الذي ينسى أمراً كهذا، ثم يتذكره بعد كلِّ تلك السنوات، فيتصل ويعتذر عن نسيانه )

- احفظي الأمانة عندك يا ابنتي ، فحسين قد رحل.. رحل؛ فقدناه.. فقدتُ ولدي وقرّة عيني.

( كانت المرأة على الطرف الآخر من الخط هي أمي )

كتمتْ ندى صرخةٌ كادتْ أن تمزق أحشاءها، وحاولت أن تفهمَ من والدتي ما الذي حدث بالتحديد.

- خالتي، ماذا جرى لحسين، أخبريني أرجوك، أستحلفك بالله أن تخبريني الحقيقة!

- لا نعلم عنه شيئاً يا ابنتي.. آخر خبر أتانا من الجندي الذي كان معه في نفس الملجأ، قال:
إنَّ حسين قد أصيبتْ ساقه برصاصةٍ عند اشتباكنا مع العدو، وحملناه مع الجرحى إلى المستشفى العسكري، وتم علاجه هناك، لكننا فقدنا أثره بعدها.. وعندما حاولتُ أن أستقصي خبره همسَ أحد الجنود في أذني.. أن أكفَّ عن السؤال، لان الضابط حسين قد ألقي القبض عليه، ولا أحد يعلم في أي سجن هو.
وها نحن لا نعلم عنه شيئاً منذ ستة أشهر، راح مني ولدي، راح حسين.. ليتني متُّ قبل أن تغيبَ عني يا قرة عيني .
(وأجهشت أمي ببكاء أم ثكلى)

كان الدمع يتقاطر من عينيها الخضراوين الزمرديتين مثل زخات المطر، أغلقتِ السماعةَ دون أن تردَّ على بكاءِ والدتي بكلمةٍ واحدةٍ، وفي داخلها صرخةٌ مكبوتةٌ لا تجد سبيلاً للخروج، فأنا في نظرها مجهولُ المصيرِ ولم يتبقَّ على المهلةِ التي أعطتها لها والدتها لتوافق على الزواج من ابن خالتها سوى أسبوع واحد، فقد أقسمت أمها بأغلظ الإيمان، إن لم توافق ندى على الزواج؛ ستتبرأ منها وتعلن غضبها عليها.

فـامرأةٌ مـن مواليـد وعهـد الثلاثينـات لـن تسـتطيعان تفسـر أعـراض فتـاةٍ عـن الـزواج، سـوى أنـه يشـكل عـاراً يلحـق بأسرتها وشرفهم، فلِمَ ترفضُ فتاةٌ جميلةٌ الزواج؟!
إلا أذا كان هناك سرٌّ معيبٌ فيها.
بدأتِ العتمةُ تزحف إلى قلبها وقد غادرها الفرح إلى غير رجعة، مثلما غادرتها أنا إلى مصير مجهول. تشعر الآن أنَّ روحَها خاويةً، وأقسى العذابات هو خواءُ الروح.
فجأة وبشكلٍ مباغت.. أحسّتْ ندى بعد أن أغلقتْ سماعةَ الهاتف بألم كأنه نصلُ سكينٍ حاد غُرِزَ في أسفلِ بطنِها، وشعرتْ برغبةٍ كبيرةٍ وملحةٍ في التقيؤ. ضغطتْ على محل الألـم فـي الجهـةِ اليمنـى مـن أسـفل الـبطن ببـاطن كفهـا، وحاولـتِ الاسـتلقاءَ على الأريكـة القريبـة منهـا، لكـن عنـد محاولتها بهبوط جسدها عند الجلوس صرخت من شدة الألـم الـذي بـدا يطـوق بطنهـا بالكامـل كأنـه حـزام مـن نـار، سمعتْ والدتها تلك الصرخة، فتركت الشاي في المطبخ وأتتْ لاهثةً لتتفقدَ ندى
- ندى، ما بك يا ابنتي، هل كنت تصرخين؟
- ساعديني ماما، بطني تكاد تنفجر..

# (8)

- لن يفيد كالإنكار أيها الكلب الجبان، فمدخلُ الرصاصةِ ومخرجها يُثبت أنها أُطلِقتْ عن قرب.
وبصفعةٍ على خدي قلبتني إلى الوراء أكمل المحقق صراخه:
- ما هو هدفك من أطلاق الرصاص على ساقك؟ تكلم
- لقد أصبتُ وأنا خارجٌ من الملجأ، أبحث عن أحد جنودي، لم أقم بإطلاق الرصاصَ على ساقي وجنودي هم اللذين حملوني إلى القطعات الخلفية، ثم إلى المستشفى يشهدون على ذلك
- قذر وابن زنى، ألاعيبك لن تنطلي علينا يا حقير، أنت هنا منذ ثلاث ليالٍ ولم تر منا سوى حسن المعاملة، هذه الحفنة من الصفعات والركلات لم تكُإلا مقدمة للتعارف والترحيب.
ومحاولتك التافهة للتحامل على نفسك ومشيك خطوات خارج الملجأ بساقك المصابة، ثم سقوطك هناك؛ لن يظهرك بمظهر المقاتل الباسل الجريح..
لأيِّ حزبٍ تنتمي يا عدو الثورة؟ تكلم، حقير.. ابن زنى.

تكلم ما هو اتجاهك السياسي؟

- مستقل

- لماذا تمتنع من الانضمام لحزبنا؟

- لستُ ممتنعاً، لكن ألم تقولوا أن الجميع معكم حتى وإن لم ينتموا.

- مزحة أخرى أيها الجبان، معلوماتنا عنك تقول أنك تقرأ كتباً ممنوعة.

- أنا أقرأ كل شيء، روايات، فلسفة، فن

- ماركس، لينين، ماو، ريجيسدوبريه، هذا ما وجدوه عندك

- نعم، أقرا لهم أحياناً

- أنك شيوعي أذن..

- لستُ كذلك

- لم أنت خائف من الاعتراف؟

- لأنَّني لست شيوعياً.

- وماركس ولينين؟..

- قرأت لهم القليل فقط من باب الفضول لا أكثر

- ما رأيك باليساريين؟

- لست منهم..

- هكذا إذاً! وماذا يعني اليسار في نظرك؟

- يعني مساعدة الفقراء، وتغيير المجتمعِ بما يخدمهم وينتشلهم مما هم فيه.
- وحكومة الثورة، ألم تساعد الفقراء وتنتشلهم، هل هي ضد الفقراء؟
- قد ساعدتهم ولا شك
- إذاً، لماذا تحرض ضد نظام الحكم ؟
- لم أفعل ذلك، أنا مستقل، وبعيد عن أي انتماء.
- ألمْ تكتبُ الشعر؟
- بلى . احيانا
- نحتفظ لك بقصاصات تتكلم فيها عن الفن والشعر الذي يغير العالم، عن الحرية.
بتلك الكلمات التافهة ستنتشل الفقراء من فقرهم، وتحارب دبابات العدو يا خائن؟
"ثم نادى شخصاً آخر، أيها الأجدع.. تعال إلى هنا".
- نعم سيدي، أمرك
- رحب بالضيف، كما يجب هذه الليلة، إنه حصتك، وأشار إلي:
أسمع يا حشرة، سنستضيفك بعض الوقت، يخيل إليّ إن لم تكن شيوعياً؛ فأنت محضُ جبان يتهرب من الخدمة

العسكرية، أيّا كنت، فذلك غير مهم، فالترحيب بك واجب علينا.

خرج الرجل البشع، ذو الشاربِ الأشقر، والبشرة الصفراء الذي كان يحقق معي، وترك رجلاً يدعى الأجدع يكمل العمل خلفه.
وأجدع هذا رجلٌ طويلٌ، تعتلي ظهره حدبة مقرفة صغيرة الحجم، ربما كانت عيباً خلقياً، أو مرضاً أصابَ فقراتِ ظهرِهِ العليا، فشوّه شكلها.. كان رأسُه كبيراً مثل كرةٍ عظيمةٍ تتوسطها عينان ضيّقتان داعرتا النظرة، فيبدو كالمسخ بوجههِ الأحمر الحليق، وفتحتان صغيرتان تدلا نعلى موقعِ أنفِكان يتوسط وجهه في ما مضى، وكأنه جدع بسكينٍ أو إنَّ دملةً كبيرةً كانت فوقه وقد اتسعتْ وأكلت الآن، حتى تعفّن وسقط ولم يبقَ منه سوى فتحتي المنخرين.
نظر المسخُ العملاقُ نحوي، حيث كنت مرميا على الأرض الإسمنتية الرطبة للسجن، وأنا أنزف من أنفي وفمي، وأرتعد من حمّى لازمتني منذ يومين، والتوّرمٌ في ساقي المصابة امتدَّ إلى أعلى الفخذ.

كنتُ أجيبُ على أسئلةِ المحققِ وأنا أغيب عن الوعي بين الفينة والأخرى، فيقوم الأجد عُبر شقي بالماء البارد من سطلٍ قذر موضوعٍ إلى جانبه ليعيد لي وعيي.

وبعد أن أصبحنا أنا والأجدع ذو الحدبة المقرفة بمفردنا، خلع حزامه الجلدي، وطواه بين كفّيه، ثم رفع ذراعه عالياً، وهبط بالحزام على جسدي المحمومِ يجلده بحقد عجيب، فكانت الجلدات تتوالى على صدري وفخذي وظهري، مثل ألسنة النارِ، أو كأنها عشراتٌ من السهام المسمومة أطلقت دفعةً واحدة، وغُرزتْ في جسدي السقيم، حتى أفقدتني القدرةَ على الحركةِ والصراخ،

لكنَّ الأجدعَ هذه المرة لم يرشقني بالماء البارد، بل ترك جسدي الذي تشقّق من الجلدِ مرمياً على الأرض، ووضع حزامه في حلقات بنطاله، وخرج محكمًا إغلاقَ البابِ الحديدية خلفه.

# (9)

لم أعد أميز بين الأيام، ولا أدري هل أصبح اليوم طويلاً كأنه أسبوع، أم تكاثرتِ الدقائق مثل الخلايا السرطانية؟ أمست الساعةُ الواحدةُ تساوي مئتين أو ثلاثَ مئةِ دقيقة، فأيام الزنزانة كلها متشابهة، سوداء لا ضياء فيها. كنتُ أشعر أنَّ الوقتَ قد توقف، فلا ليلاً ولا نهار، وقتٌ خارج الوقت.. علّمونا أنَّ الوقتَ يتوقف حين تبلغ الأجسام بسرعتها سرعة الضوء، لكن لا أحد حدثنا عن الوقت داخل زنزانة مظلمةٍ كيف يكون.

كنت أقع بين يدي المسخِ العملاقِ الذي يُسمى الأجدع مرتين في اليوم، يتلاعب بي مثل دمية.

حين سمعتُ اسمه أول مرة شعرت باستفظاعٍو غرابةٍ كبيرين، فلم يُسمى أحدٌ باسمٍ من أسماء الشيطان اللعين! لكن سلوكه المثير للدهشة قد جعلني أجد الجوابَ لسؤالي البليد هذا.

إنَّ مَن يعذبون السجناء في الزنازين هم ليسوا من البشر بالتأكيد. قد يكونون من الجنّ الشرير الذي يستمتع بعذابِ بني البشر، أو ربما هم من هؤلاء اللذين يتنفّسون الدماءَ وقلوبُهم تنبضُ فقط حين تحفزها صرخاتُ المعذبين، ولا

تنبض بفعلِ المحفزاتِ والإشاراتِ الكهربائية مثل باقي البشر.

فخفقتُ في رأسيَ المتعبِ، ذكرى لموقفٍ غريبٍ لشخصية أغرب. كان ذلك الرجلُ عظيمَ الفكرِ، مبدعاً بالفطرة، غريبَ الأطوارِ باعترافهِ في سيرةِ حياتهِ التي خطّتها يداه على الورق، سلفادور دالي اللغزُ المحيّرُ، تذكرتُما فعله مع تلك الطفلةِ الصغيرةِ، ذات الثلاث سنوات، كانت أخت سلفادور تحبو عند مدخلِ غرفةِ الاستقبال، وهو يقف بعيداً عنها في الزاوية يرتعش خوفاً من المذنبِ الذي قيل عنه أنه سيمرَّ هذه اللحظة في السماء، وقد يرتطم ذيلُهُ بسطحِ الأرضِ معلنا نهاية العالم. يقول سلفادور: حينما كنت أرتجف في إحدى زوايا الغرفة، وقد هرعَ جميع من في المنزل إلى الشرفةِ في أملٍ لمشاهدةِ تلك الظاهرةِ الكونيةِ الفريدة؛ انتبهت إلى أختي الصغيرة تحبو قرب المدخلِ، فما كان مني إلا أن تعمّدتُ رفسها بقسوة على رأسها، كما لو كانت كرةً، ثم تابعتُ طريقي نحو الشرفة ملتحقاً بالآخرين، مغموراً بمتعةٍ لذيذةٍ ناتجةٍ عن هذا التصرّفِ الهمجي.

كانت تلك الذكرى تقدحُ في خاطري، حين ألحظُ المتعةَ في عينيّ الأجدع وهو يمارس ساديّته معي، حقاً هو شعور غريب ومزرٍ، حين تكون نشوتُك مرتبطةً بآلامِ الآخرين.
كان المسخُ العملاق يسلّي نفسه بجولاتٍ قصيرةٍ ومتنوعةٍ معي. فمرةٌ يلسعني بالعصا الكهربائية عدةَ لسعات حتى أفقد وعيي، وحين أفيق أشاهده جالساً في ركنٍ من أركانِ الزنزانة، ممسكاً بقطعةٍ من اللحم النيئ، ويحاول تدريبَ أسنانه الصفراء على تمزيقها، وما أن يرى جسدي؛ يتحرك حتى يرمي قطعةَ اللحمِ من يده، ويقف فوق رأسي ينظر إليَّ بعينين مخيفتين تشبهان تلك النظرة التي تنبعث من عينيّ حيوانٍ مفترسٍ جائع.
يبقى ينظر إلَّي هكذا برهةً من الزمن، ثم ينتفض فجأةً ويبدأ بركلي بحذائه الأسود، طويل العنق، ذو المقدمة الحديدية الملطّخة ببقع الدم الجاف، وتفوح منها رائحةُ جرذٍ ميتٍ، فيحطم كلَّ عظمٍ وكل ضلعٍ في جسمي، حتى يختفي صوتي من شدة صراخي وأنا أتقلب بين قدميه مثل كرة، وحين تنتابني نوبةُ تقيؤ فتخرج من جوفي مادة صفراء ممتزجةٌ بالدم، وأشعر أنني فارقتُ الحياةِ، ولا أدري.. هل بالفعل كنتُ أموتُ، ثم أعود من الموت بعد زمن لا أعلم مدته، أم أذهب في غيبوبة؟ ولكنني حين أفتح عيني

في المرة التالية وأنظر مرعوباً للركنِ الذي يجلس فيها لأجدع؛ أجده قد غادرَ وتركني أسبح في بركةٍ من الدم والبول، ملتصقاً بأرضية الزنزانة الباردة.

# (10)

# (اغتصاب)

رأيته يمزقُ فستانها الأبيض بأسنانهِ الصفراء الناتئة، مثل أسنانِ ذئبٍ يتضور جوعاً، بعد أن طرحها أرضاً واعتلاها بجسده الضخم، فلم يكد يظهر من جسدها الطري شيءٌ سوى أطرافِ فستانِ الزفاف الممزق.

كنت أسمعها تصرخ باسمي من شدةِ الألمِ، وتطلب مني أن أنهي عذابها.

حاولتُ أن أسحبَ ذراعي، أو ساقي، أو أيَّ جزءٍ من جسدي، لكن لا شيء كان يتحرك، وكأنني منوّمٌ مغناطيسياً، أو مشدودٌ إلى جدار الزنزانة القذر. جربّت الصراخَ بأعلى صوتي لكن فمي كان يشبه كهفاً في جبل.. أصرخ مثل فمٍ أبكمٍ لا صوت يخرج من حبالي الصوتية المعطوبة.

نزع عنها فستانها الأبيض الممزق حتى خصرها، فبانت كرتا الثلج بحلمتيها النافرتين، وهما ترتعشان تحت جسدِ مغتصبها العملاق النتن، وراح يلتقمُ بفمهِ الواسعِ المبللِ باللعابِ، حلمتها اليسرى ويمصّها مثل الغول، فتتشقق بين

شفتيه، وتنزف دماً يبلل صدرها، ويسيلُ من زاويةِ فمهِ ممتزجاً بلعابه الأخضر، كانت تصرخ وتتلوى، وتطلب مني باسم حبي لها أن أفعلَ شيئاً وعيناها الخضراوان الصافيتان كانتا قد احمرّتا من شدّةِ الخوفِ والألم.

كنتُ أضربُ رأسي بقوةٍ بالجدار الذي خلفي مع كل صرخة منها، وأحاول أن أنتزعَ أطرافي من القيدِ اللامرئي، الذي حنّطني وكأنني مومياء عديمةُ النفع، لكن من دون جدوى.

كانت ندى تتعذب أمام ناظري دون أن أقوى على حمايتها.

لكنني أخيراً سمعتُ صوتي الحبيس يخرج من حنجرتي مدوياً في الزنزانة المظلمة:

أيها الغول القذر، أرفع جسدك عنها..

ندى .. قاوميه يا نور عيني، ندى.. ندددددددى

وحين أحسستُ ببلل الماءِ البارد وهو يضرب وجهي من سطلِا لأجدع القذرِ مثل كل مرة بعد أن ارحل في غيبوبة عميقة؛ كنت قد استيقظت من كابوسي المتكرر.

# (11)

# (في نهاية النفق)

- سيدي.. سيدي
- ما بك.. يا أحول العينين، لِمَ تصرخ؟
- عفوا سيدي، لكن هذا الضابط برتبةِ ملازم أول، المسمى حسين علي، المسجون لدينا منذ ستة أشهر..
- ما به هذا الجبان؟
- سيدي كان الأجدع ينفذ أوامرك بالترحيب به مثل كل ليلة، ويلاعبه بالعصا الكهربائية كالعادة، لكن هذا الحقير من شدة ألمهبصق في وجه أجدع، وأنت تعلم بجنونِ الأجدع الشيطان يا سيدي ..
- وماذا حل به؟! تكلم
- راح أجدع يركله بكل ما أوتي من قوة على ساقهِ المصابة والمعوجّة وعلى صدرهِ، وخاصرته فلما ألح بركله على خاصرته اليمنى مثل الثور الهائج؛ صرخ السجين صرخةً غريبة، ثم فقد الوعي وتوقف عن التنفس، وهو ملتصق الآن بأرضيةِ الزنزانة مزرقُّ الشفتين، اعتقد أنه مات يا سيدي.

- ماذا، استدعِ الطبيبَ حالاً.. لا نريد لهذا القذرِ أن يموت هنا، فالتحقيق لم يثبتْ انتمائه لأي جهة معادية، ثم إنه برتبة ملازم أول، وقد أتاني اتصالٌ اليوم بأنَّ العقيد (س) سيزور السجن هذا الأسبوع.. وأنت تعلم كم هو نظيف سجننا، ولا يحوي غير المؤكدة جرائمهم من السفلة والهاربين من الخدمة العسكرية.

نحن لسنا بحاجة لهذه القاذورات هنا، يكفيه ما نال من تأديبٍ على أيدينا، كي يتعلمَ كيف يصمد في الجبهات كالرجال. هيا أنقله بعيداً عن السجن وأرحْنا منه حالاً.

وقعت والدة ندى على الأوراق التي ناولتها إياها الممرضةُ السمراءُ القصيرة، والتي يظهر عرضَ وركيها وامتلائهما من فستانها الأبيض القصير.. قالت الممرضة:

إنَّ تلك هي الموافقة على السماح للطبيبِ بإجراءِ العملية لندى. فقد اكتشفَ الطبيبَ بعد أن قام بفحصِ بطنها، أنها تعاني من التهابٍ في الزائدة الدودية، وقد وصل إلى أقصى حد، وربما ينفجر هذا المصران الصغير في بطنها؛ مخلفاً مشاكل خطيرة.

هيا يا أختي، وقّعي ولا تخشي شيئا.. إنها عمليةٌ طارئةٌ ولابد من إجرائها.

كانتِ الخالةُ سناء تمسك بذراعِ أم ندى، وتشجّعها، وهما واقفتان في الرواقِ الطويلِ أمام غرفة العمليات الكبرى، حيث ترقدُ ندى في الداخل..

- لا تخافي يا أختي، ألا تذكرين كيف رفعوا لي أنا أيضاً ذلك المصران الأحمق قبل عشر سنوات؟ ثم نهضتُ بعد ليلة واحدة على قدمي وكأنَّ شيئاً لم يكن!.

- نعم يا سناء، أعلم أنها عمليةٌ طارئة، ولكن هذه أول مرة تدخل فيها ندى صالة العمليات، وقلبي يرتعش في صدري خوفاً عليها.

تعلمين أنَّندى ضعيفةُ البنية، وأخشى أن لا تحتمل، فقد أصبحتْ صحّتُها معتلةً في الأشهر الأخيرة، وقلّتْ شهيتها كثيراً.

- أنت السبب يا أختي.

- ماذا.. ! وما الذي فعلته أنا كي أسببَ الألمَ لابنتي يا سناء؟

- تلك هي المشكلة ، وهذا هو بيت القصيد.. أنك لم تفعلي شيئاً، قلتُ لكأنَّ البنتَ شارفتْ على السابعة والعشرين، وهي وحيدةٌ دون رجلٍ يحبها وتستأنس به، وأنت تعلمين أنَّ ابني سلام يعشق الترابَ الذي تمشي عليه، وهو ينتظرها منذ سنوات، وهل هناك من هو أعرف بطبعِ

ولدي سلام منك يا أختي! صحيح أنه يميل إلى الكآبةِ ومعتدٍ بنفسهِ، لكنه طيبُ القلب، أحياناً قد يأتي بعملٍ قاسٍ ويجرح من حوله، لكنه رجلٌ كريم، هو لا يعرف كيف يثرثر كالشباب بأحاديثِ الحب والشوق، لكنه ليس باردَ الشعور، أو جامدَ الإحساس، إنه فقط كثيرُ الصمت، واسعُ التفكير، ولا يحب أن يضيّعَ وقته فيما هو تافه.

- اعذريني على ما سأقوله يا سناء.. لكن سلام يكبر ندى بعشرين سنة، وهو رجلُ حربٍ منغلقٍ وصارم، وندى ما تزال فتاةٌ مرهفةُ الحس، وهي رقيقةٌ لا يمكنها التوافقَ مع صرامةِ رجلٍ لا يغفر الخطأ، ولا ينسى الزلة.

- وهذا عينُ ما تحتاج إليه ابنتك، رجلٌ قوي الشكيمةِ ينتشلها من أحلامِ العصافير التي تغرق فيها، ويفتح عينيها على الهوّة السحيقةِ التي ستقعُ فيها إن لم تقترنْ بسلام.

لكن ألم تفكّري بمستقبلك ومستقبل ندى، فابني لن يقوى على البقاء هكذا دون زوجة، وإن تزوّجَ بالتأكيد سننشغل عنكم، وستكون أموالـه وأموالُ أبيه - رحمه الله - من حصّةِ الزوجةِ الغريبة عنا ومن حقها وحق أولادها..

فإنحدث هذا؛ كيف لكما أن تعيشا وتتدبّرا أمركما أنت وندى؟ اعذريني يا أختي، أنا لا أقصد سوءاً من كلامي هذا، لكنك تعرفين الحقيقة، فأنا وسلام نعيلكم، ونتحملُ

تكاليفُ معيشتكم أنت وندى منذ سنوات طويلة، والفُتاتُ الذي تتقاضاه ندى من وظيفتها في قسم الحسابات في الوزارة، لا يكفي طفلاً صغيراً، ونحن في أيام عصيبة، وحربٍ قد لا تنتهي.. ثم أن ابنتك أصبحتْ غريبة الأطوار، شاردةَ الذهنِ، عابسةَ الوجه، يعتلي الشحوبُ وجهها، والرعشةُ تلازم كفيها، وكأنها عجوزٌ في السبعين.. أقول لك الحق؛ إن لازم هذا الحال ابنتك، قد تصاب بالجنون ولا شك.

شهقتْ والدة ندى في وجهِ أختها، وعيناها تكاد تخرج من محجريهما من شدة الخوف، فأشاحتْ سناءُ بوجهها عنها، ثم عادتْ ونظرتْ لها من طرفِ عينيها البنيتين الجاحظتين دون داءٍ أو علة، والكلمات تخرج من بين شفتيها بما يشبه الهمس:

"خلي عقلك براسك وعقلي بنتك، فقد نفد صبرنا يا أختي"

طأطأ تْأم ندى رأسها، في ذل وخجل، ونظراتُ الرعب من المجهولِ تلوح في وجهها البليد المترهل، ثم دمدمت بصوت خفيضٍ لا يكاد يسمع:

-أعلم أنكم أصحابُ فضلٍ علينا يا سناء، لكن لتخرجْ ابنتي من هذه المحنة، إنَّ ندى ابنتكم، ولن تنكرَ فضلكم عليها.

بانت ابتسامة رضا وخيلاء على شفتي سناء الرفيعتين الملوّنتين بأحمر شفاه مثل لون الدم الفاسد، ورفعتْ رأسها بشموخ أمام رأس أختها الذي ظلَّ منكّساً، يثقله ذلُّ الفاقةِ وضيقُ الحال.

كانت سناء في الخمسينيات من عمرها، نحيلةً وصلبة، عظامها بارزة، وهي تكاد تكون مسطحة.. مسطحةً جداً، وكأن شيئاً ثقيلاً ضغطها، مؤخرتها معدومةٌ كأنها ضُربتْ بفأس، فتركها دون ارتفاعٍ يذكر، جسمها يشبه جسمَ ضفدعة مع ذراعين وساقين نحيلتين طويلتين، حركاتها الحادة الواضحة تشير إلى إرادةٍ قويةٍ وطبعٍ شرير، كان هناك شيءٌ غامضٌ في مظهرها.. يرتسم على فمها تعبيرٌ حزين، ويبدو شكل فمها سيّئاً بشفتها السفلى المقلوبة، يمكنك القول من النظرة الأولى بأنها تعرف ما تريد وتمسك به بلا رحمة كالآلة، هي ليست سيدة متنمّرة، لكنها شخصٌ يستغلك، ثم يرميك جانباً دون ندمٍ كما لو كنت فرشاةَ تنظيفٍ بالية، تعاكس بذلك أختها شكلاً ومضمونا، فوالدة ندى امرأةٌ تميل إلى البدانةِ والترهّل، وجهها تطفو عليه

سمةُ البلادةِ والعجز، وتشعر وأنت تنظر إليها، أنها من الناس الذين تعوّدوا على القيادِ والطاعةِ العمياء.

# (13)

فُتحَ بابُ غرفةِ العمليات الكبيرُ، وخرجَ منه رجلٌ يرتدي بذلةَ عملٍ خضراء باهتة، يجرُّ خلفه سريراً متحركاً رقدتْ عليه ندى مغطاةٌ بملاء اتٍ خضراء غامقة، وتبدو مثل الأميرةِ النائمة بوجهها الملائكي الناصعِ البياض، وملامحها الأنثوية الناعمة.

هرع تْأم ندى قرب ابنتها، ووقفتْ الخالة سناء مبتسمةً في الجانب المقابل، فتجمّعَ حولهما بلمحِ البصرِ جمعٌ من الرجالِ والنساءِ، ممن يرتدون البذلاتِ الخضراء الباهتة، والتي هي اللونُ الخاص بالممرضين والممرضات اللذين يعملون في غرفِ العمليات. كانت أصواتُهم تتعالى بالتهليلِ والتبريكِ لخروجِ المريضةِ بسلامٍ بعد العملية، رغم أنها لم تفقْ بعد من آثارِ التخدير، لكن أيديهم كانت متلهفةً لاستلامِ "البخشيش" من الأم المسكينة التي ظلّتْ ترمقهم بنظراتٍ حائرة فأنقذتها منها الخالة سناء، وفتحتْ حقيبتها العامرة، وأخرجتْ منها حزمةً من الأوراقِ النقدية، وراحت تفرّقها على جميع الأيدي الممدودة لها، وكأنّها في عرسٍ واحتفالٍ بهيج.

فُتحَ البابُ الزجاجيُّ الكبير لصالةِ العملياتِ مرةً ثانية، وخرجَ منه شابٌّ في الثلاثين من عمره، يرتدي بذلةً زرقاء فاتحةَ اللون، تناسبُ لونَ عينيه اللتان تشبهان بزرقتهما ماءَ البحر الصافي.

كان يرتدي كماماً على وجههِ، وقد سحبه وأنزله إلى ما تحت ذقنهِ بعد أن خرج من الغرفة.

نظر إلى المرأتين الواقفتين حول سرير ندى، حيث لم تغادرا الرواق بعد، ووجّه الكلامَ للمرأة التي تحني رأسها وتلصقه برأس ندى، وهي تذرف دموعَ الفرحِ والخوف .

- لابد أنك والدتها.. حمداًلله على سلامتها، قد تداركنا الموقف في اللحظات الأخيرة، قبل أن تحصل الكارثة وتنفجر الزائدة في بطنِ هذه الأميرة الجميلة.

- الشكر لك يا ولدي، آسفة يا دكتور.. أنت في مقامِ ولدي بالتأكيد، سأدعو لك اللهَأن يحميك، يعجز لساني عن الشكرِ لما فعلته من أجل ابنتي الوحيدة.

- إنها وحيدتك إذن يا سيدتي، ما أروع إنتاجك! لو لم أكن متزوجاً لحجزتها لي، فأميرتك ندى لا تتكرر مرتين.

- أنها مخطوبة لابني العقيد سلام يا دكتور.

صاحت سناء من مكانها وهي تنظر لعيني أم ندى لتؤكّد كلامها الذي صبّته في أذني أختها مثل الرصاص الذائب.

ردَّ الطبيبُ الشاب على كلام سناء بنبرةٍ روتينية باردة:
- حمداً لله على سلامتها، سيأخذونها هذه الليلة، لتبقى تحت المراقبة في الردهةِ الجراحية وسأزوركم في الصباحِ لأطمئنَّ عليها بإذنِ الله.
تركهم الطبيبُ الوسيمُ، وذهب قاطعاً الرواقَ بمشيةٍ رياضيةٍ رائعة، بينما أكملَ الرجالُ ذو البذلات الخضراء جرَّ السريرِ المتحركِ إلى حيث أمر الطبيب ترافقهم أم ندى، والخالة سناء. وكلٌّ واحدةٍ منهما تعربد في رأسها أفكارٌ مضادةٌ لأفكارِ الأخرى.. مثل تضاد أفكار جندي مهزومٍ وآخر منتصر.

# (14)

كانت أمي تسندني على كتفها حين دخلنا المنزل، بعد أن قضيتُ يومين كاملين في المستشفى، ولا أدري لما انزعجتْ تلك الزائدةُ الدوديةُ في بطني وقرّرتْ أن تنفجرَ وتتخلصَ من الحياة.. ربما قد تأثّرتْ برغبتي أنا في الخلاصِ من حياتي، وكل ما يحيط بي من إحباط، لكن يبدو أنني تمسكتُ بالحياةِ وتركتُ زائدتي تنتحر لوحدها.

لا أ دري لماذا يبقى الله صامتاً عن كل جرمٍ وظلمٍ في دنيانا هذه؟!

إنَّ الشيطانَ وحده هو الذي يتكلم، أو على الأقل.. مهما كان انتباهنا، فإننا لا نتوصل إلا إلى سماعِ صوتِ الشيطان، وكأنَّ ليستْ لنا آذانٌ تتيحُ لنا سماعَ صوت الله.

أين صوتُ اللهِ لينقذني من قبري وأنا على بعد خطوةٍ من الوقوع فيه؟ لماذا لا يطرقُ سمعي سوى صوتِ الشيطان، صوتِ خالتي سناء، وصوتِ اليأس والخوف من المجهول؟

هل يمكن للموتِ أن يمكِّنَنا من سماعِ صوتِ الله؟ سمعتُ أنَّ الزمنَ لا وجودَ له بعد الموت.. وربما سندخل من باب الخلود في الحال، عندها لن يبقى لأصواتِ الشياطين أثر،

حتى شياطيني أنا ستندثر ، ستتحرر روحي من معقلها، ولن يعيقني فقرٌ أو خوفٌ عن التحليقِ في عوالمِ ما بعد الموت، ربما أنا خضتُ بالفعلِ تلك التجربةَ وأنا على سرير العمليات، كانت ساعةٌ انفصلتْ فيها عن الكون.. غادرتُ إلى حيث لا أعلم.. سكونٌ تام، سكونٌ لذيذ.. تشعر بعدها أنك لا يمكن أن تتذوّقَ لذّةً كلذّةِ انفصالِ روحك عن جسدك.. هل يمكن أن يكونَ الموتَ لذيذاً هكذا؟!

إنه يعفينا من ثقلِ مسؤوليةِ اتخاذِ القراراتِ الحاسمة، من الشعورِ بالذنب، من الضجيجِ المحيطِ بنا والذي يدفع بنا لننزلقَ في بئر الأنا الغائر.

*******

أشعرُ بالخواء، جسدي مرهق، ورأسي يدور وتدور فيه صور، صورٌ تترنّح .. لوحاتٌ سريالية مرعبة.. أعتقد أن ما يحصل لي هو من أثر المادةِ المخدّرة التي حقنوني بها، أو ربما هي هلوسةُ الخوف، خوفي من ندى.. ندى التي بدأتْ تفكّر في نفسها وأدارتْ ظهرها لعاطفةٍ لن تحصدَ منها سوى الألم.

لكن أيهما هي ندى التي تختبئ في داخلي؟

من منهما ستنتصر في نهاية المطاف؟ ندى المنتظرة لحبيبٍ مجهول، أم ندى التي ترى في العقلِ الخلاصَ من وحشةِ السيرِ في متاهةِ مهجورة؟

أشعرُ أنني في حالة جنون، ربما جننتُ فعلا، نعم الجنون.. لكن ما هو الجنونُ حقاً، وكيف يكون؟

من هو المجنون؟ أهو ذلك المخبول الذي يجوب الشوارع مثلاً.. ها؟

ما الفرقُ هنا بيننا وبين المجانين الحقيقيين؟ فهؤلاء أيضاً قد اخترعوا عالمهم الخاص داخل عقولهم المضطربة ، حيث لا مخرجَ ولا نجاةَ إلا بالهلاوس والخيالات غير المرئية إلا لهم، بل إنه يبدو منطقياً جداً لهم، ومضحكاً جدا بالنسبة لنا.

خالتي سناء القاسية المتعجرفة كانت تتبعنا وكأنها في عرس كبير، وجهها يتهللُ فرحاً، وكلامها عن ولدِها سلام لا ينقطع وبين الحين والآخر تناديني بعروس ولدي.

دخلتْ غرفتي وساعدتني أمي على مدِّ جسدي المتعبِ فوق السرير، ثم ذهبتْ للمطبخِ لتعدَّ لي حساءَ الدجاجِ لترمَّ بها عظمي - كما كانت تقول - وتركتني مع خالتي سناء الثرثارةِ تجلسُ بجانبِ سريري، وتكثر من الكلامِ عن أموالها، والعقاراتِ التي تركها لها زوجها بعد وفاته.

وكـم سـأكونُ سـعيدةً حـين أحـلُّ فـي منزلهـا عروسـاً لابنهـا سلام. كان حديثها يشبه الألم الذي أصابني في بطني بسببِ زائـدتي المجنونـة. وأنـا أفكـر بحسـين الـذي ذهـب إلـى المجهـول. وحـين يـذهب أحـدُ الرجـالِ إلـى المجهـولِ فـي حكـمِ ديكتـاتور؛ فلـن يعـود إلا إذا فقـد عقلـه، فيودّعـوه مستشـفى الأمـراضِ العقليـةِ، أو يلقـوه فـي مزابـلِ الجثـثِ، حيث يلقون ضحاياهم.

لـو كنـتَ أمـامي الآن يـا حسـين! لصـرختُ فـي وجهـك وأنـا الطمُ خدّي وأبكي بكلِّ حرقتي معاتبةً إياك.. لماذا تركتني! يا ترى بأيِّ حماقةٍ أتيتَ كي يغيبوك في سجونهم المظلمة! الم تفكّرْ بي؟

ألم تفكرْ ف سنواتي التي أحرقتُ أيامها في انتظارك؟

لطالمـا كانـت أفكـارُ حسـين مجنونـة، وكـم مـن مـرةٍ كـاد أن يتعـرّضَ فيهـا للاعتقـال حـين كنّـا فـي الجامعـة، إنـه يهـذي بكلمـاتٍ قرأهـا هنـا وهنـاك عـن الفكـرِ الماركسـي، مـع أننـي متأكدةٌ من خلوِّ ذمتِه من أيِّ تنظيمٍ أو حزبٍ معارض، لكن أشـعارُه التـي يكتبهـا تثيـر البلبلـةَ حولـه، وتضـعه أحيانـاً فـي دائرة الشك، إنها لكارثةٌ كبرى إن كان سببُ اختفاءِ حسين وشـايةً مـن أحـدهم! إن كـان ذلـك هـو مـا حـدث يقينـا؛ هـذا يعني أنني ترمّلت قبل أن أتزوجَ بك يا حسين..

كيف سأتخلصُ من البئرِ الذي وقعتُ فيها! كان أملي أن نتزوجَ ويخرس لسانُ خالتي سناء إلى الأبد، ونتحرّرُ أنا وأمي من الطوقِ الذي تضعه في رقبتينا، فتجرّنا وراءها مثل كلابٍ منزليةٍ خنوعة.

لكن بعد أن خذلتني يا حسين .. وتركتني أخوض بمفردي حربا غير متكافئة ... وأنا منزوعة السلاح .. .. حربا برزت نهايتها في الأفق قبل أن تبدأ.

تركتني ليفترسَني فكُّ خالتي وولدها، أصحابُ الفضلِ علينا، وهم يطالبون بأن نردَّ لهم الشكرَ والفضل، فأبيعُ قلبي للشيطان، مرتديةً فستاناً أبيضَ يطوّقُ شريطه الأحمر خصري قبل أن أُزفُّ إلى سلام.. ذلك الشريط البغيض كان قيدي، إنها علامةٌ متوارثة لعائلتنا، تدلُّ على الحبِّ والرباطِ المقدس مدى الحياة، فبعد أن اختفيتَ وتركتني للذئاب؛ سأضع الشريطَ الأحمرَ علامةً على دمي المسفوحِ غصباً تحت جسدِ رجلٍ سيملك جسدي خالياً من قلبي...

ندى.. أنا ندى.. فتاةٌ مجوّفة... جسدٌ بلا قلب..

كانتِ الأفكارُ تعصفُ برأسي، والصداعُ يمزّقني، وثرثرةُ خالتي لم تتوقفْ.. كلُّ كلمةٍ من حديثها كانت تمسُّ مني جرحاً خفياً يؤلمني، حين دخلتْ أمي بوجهها الشاحبِ وهي تحمل صحناً من حساءِ الدجاجِ الساخنِ يتصاعدُ منه

البخارُ، وتفوح رائحتهُ الطيبة، شعرتُ بجوعٍ مفاجئ، أو أعتقدُ أنني لم أتخلَّ عن عادتي السيئةِ حتى وأنا على فراش المرض، والغرز بخيوطها اليابسة مطرزةٌ على بطني، فكلما شعرتُ بالحزنِ والغضبِ؛ أهربُ إلى الأكل، ألتهمُ كلَّ شيءٍ دون أن أشعر بلذتهِ، أسناني فقط هي من تتحرك، تمضغُ وتمضغُ حتى أشعرَ أنني أكاد أنفجر. رغم ذلك فقدتُ كثيراً من وزني في الأشهر الأخيرة.

تناولتُ الصحنَ من يديّ أمي، ووضعته في حجري، وبدأت أرتشفُ الحساءَ الساخنَ كالمجنونةِ، وكلماتُ خالتي تثقبُ رأسي، فقد بدأتْ تتحدثُ إلى أمي عن وقتِ الزفافِ، وفستانِ العرسِ الأبيض، وتحددُ وقتاً من نفسها كي تذهبَ معنا أنا وابنها لاقتناء مهري. كنتُ ساكنةً، صامتة، أستغرب وأعجبُ من قوتي على ضبط نفسي واخفاء مشاعري.

- انهضي فقط على قدميك يا ندى، وتشجّعي، سترين ما سأشتريه لك من أساور وخواتم، أنت عروس ولدي الوحيد، سيكون زفافكما حكايةَ للحي والأقارب.

نظرتُ إلى عينيّ أمي أستنجد بها، كنت أريد منها أن تراوغَ خالتي سناء كما كانت تفعل دوماً، لكن نظراتُ أمي كانتْ غريبةً هذه المرة، منكسرةً على غير عادتها، وكأنها تتوسلُ

**إليَّ وتخبرني أنَّ القيدَ قد أحكم حلقاته على رقبتينا بعد أن أخلفَ من أحبه وعده، واختفى منذ ستة أشهر، وسلّمني إلى قدري عارية.**

# (15)

شعرتُ بشيءٍ غريبٍ داخلَ فمي يخترق بلعومي، حاولتُ أن أحرّكَ ذراعي فعلقتُ بالأنابيب البلاستيكية التي تحيط بي من الجانبين، جلتُ بنظري من حولي، كان كل ما يحيط بي هو البياض.. سقفٌ أبيض، وأرضٌ بيضاء لامعة، ملاءات بيضاء تغطّيني حتى عنقي، وفواصلٌ من ستائرٍ بيضاء تفصل سريري من الناحيتين. سمعتُ طنيناً يشبه النبضَ يطنُّ قربَ رأسي، رفعتُ بصري قليلا.. إنه يأتي من شيءٍ مربعٍ يشبه التلفاز موضوع على منضدةٍ خشبيةٍ قرب رأسي، يبث خطوطَ نبضاتِ قلبي المتعب. إذن أنا لست في الزنزانة القذرة..

لا يهم أين أكون.. في المستشفى أو في عالم الأرواح، المهم أنني أرى الضياءَ والنورَ خارج ظلام الزنزانة.

تراكمَ في صدري سعالٌ خانقٌ، فبدأتُ أسعلُ دون انقطاع، وألمٌ ممزقٌ يحفر في خاصرتي وبطني.

يبدو أنَّ سعالي شقَّ صمتَ المكانَ الأبيضِ الساكن، إلا من طنينِ أجهزةِ مراقبةِ النبض. سمعتُ صوتَ خطواتٍ تتقدم نحو سريري، كان شخصٌ بمعطفٍ أبيض يقف قربي، رفعتُ بصري نحوه، كان شابٌّ في العشرين من عمره،

ببشرةٍ بيضاء تشوبها حمرةٌ خفيفة، عينان بندقيتان وشعرٌ بنيٌّ صُفِفَ بعناية إلى الخلف. نظر إلى وجهي وحدّثني بصوتٍ خفيضٍ كأنه لا يريد أن يوقظَ أحداً في هذه البندقةِ البيضاء الغريبة.

- ألف سلامة لك حسين.. حاول أن تهدأ فأنت بحاجةٍ للراحةِ التامةِ هنا في ردهةِ العناية المركزة بعد عملية رفع الكلية اليمنى.

مدَّ يده المغطاةَ بقفّازٍ بلاستيكي أبيض، ونزع عني الشيءَ المزعجَ الذي يخترق بلعومي، كان أنبوبٌ لسحبِ السوائل من معدتي. ثم أردف قائلاً:

لا داعي لهذا الأنبوب بعد الآن، فأنت بحالٍ مستقرٍ ويمكنك الكلامَ، وشربَ قليلاً من الماء على دفعات.

لم أشك للحظةٍ واحدةٍ في سمعي أو وعيي، لأنَّني أشعر أني بكامل الوعي الآن، والطبيبُ الشاب يقف أمامي، لكن بالتأكيدِ كان هناك تشابهٌ في الأسماء، فاختلط الأمرُ على الطبيب، فظنَّ أنني أجريتُ عمليةً لرفعِ الكلية، بدلاً من عملية ساقي المعوجة، وقبل أن يبتعدَ عني صحتُ بصوتٍ خرج من بطني قبل حنجرتي:

-إنك واهمٌ يا دكتور، فأنا مصابٌ في ساقي، وقد دخلتُ المستشفى عدةَ مرّاتٍ أثناء وجودي في الزنزانة، كانوا يحملونني بعد أن تتورمَ ساقي المكسورة ويتقيحُ الجرحُ الذي فيها، فيقومون بتنظيفها من الصديدِ والدم، ويضعون عليها الضماداتِ ويعيدوني إلى السجن، أعتقد أنك تقصد شخصاً آخرَ يحمل اسم حسين، فأنا لم أشكُ يوماً من ألم في كليتي مطلقاً.

- لا.. لستُ واهماً يا حسين، إنك بالفعل قد خضعتَ لعمليةِ رفعِ كليتك اليمنى صباح الأمس، وأُدخلتَ هنا تحت المراقبة المشددة.. أنا مناوب هنا اليوم، ولم أحضر وقت إدخالك لصالة العمليات، لكن الجرّاح المختص سلمني ملفك وأوصاني بمراقبتك، فقد كنتَ تحمل حصىً كبيرةَ الحجم، ناتئةَ الحواف، احتلّت كليتك، وأحدثتْ خراباً فيها، فكان لابد من رفعها.. وماهي إلا أسابيع وستعود بصحة جيدة، فكلية واحدة تستطيع احتمال جسدك إلى نهاية العمر إذا اعتنيت جيداً بطعامك ولم ترهقها.

- أي حصى هذه يا دكتور! وكيف تكون بهذا الحجم ولم أشعرْ بأي ألم حتى وأنا تحت أقدام الأجدع؟

- أي أجدع هذا يا حسين؟ أرى أنك تهذي قليلاً بسبب الألم والحمى، سأحقنك بمنومٍ لتقضي ليلتك هادئاً مرتاحا.

لم يدعْني أكمل كلامي، وامتدت يده بخفةٍ ساحرة، يتقنُ لعبةَ الخدعَ البصرية، فسحب حقنةً كانت على المنضدة الخشبية بجواري، وملأها بسائلٍ شفّاف من أنبوبةٍ زجاجيةٍ بحجم الإصبع الصغير، ثم حقنها في ذراعي وانسحب إلى مكانه، تاركاً بياض الستائر المخيف يحيط بي وبهذياني..

*******

مددتُ يديّ لأمسك كفك البيضاء يا ندى، فها أنت تقفين أمامي.. لا أدري أهو حلمٌ أم حقيقة!

إني أراك أمام سريري مباشرة، تنظرين إلي بعينيك الخضراوين الزمرديتين..

ها تكفك حبيبتي، لماذا تبتعدين عني؟! ندى.. لماذا لا تبتسمين.. أرى دموعاً سوداء تقطر من عينيك... أهو هذيانُ حقنةِ الدواء المنوم؟! ندى، شكلك غريب هذه الليلة لكن ما هذا الشيء حول ذراعيك وخصرك؟!

كان حسين يتمتمُ بكلماتٍ غير مفهومة، وخيالاتٍ غريبةٍ تتراقص أمام عينيه، تتخللتها صورٌ لندى بفستان أبيض ووجهٍ شاحب، وذراعين مقيدتين بحبلٍ متينٍ أحمرِ اللون.. وكلما كان يمدُّ يده ليمسكَها؛ تبتعدُ عنه الصورةُ الشبحيةُ، وتختفي في بياض السقف، بينما يثقلُ جفنيه النعاسُ، وتتوسدُ قطراتُ العرقِ جبينه ورقبته، فاستسلم بعدها لنومٍ عميق ثقيل.

# (16)

لم يعيدوني إلى زنزانتي المعتمة مرة أخرى، ولا أعلم لماذا.. فهم لا يأبهون كوني أصبحتُ بكليةٍ واحدةٍ وبساقٍ معوجَّة.

فما الذي دفعهم أن يبقوني تحت المراقبة المشددة في المستشفى لشهر ونصف! وفي غرفة منعزلةٍ يقفُ على بابها عسكريان يتناوبان على حراسةِ غرفتي، وينصتان لحركاتي وسكناتي، هل عمد والتنظيفِ السجنِ من آثارِ جرائمهم لسبب ما؟

وهل علي أن أصدِّقَ قصةَ الحصاةِ الكبيرةِ الناتئة التي احتلّتْ كليتي، فرفعوها وتركوني بكليةٍ واحدة ؟

أنا لا أذكر شيئاً عن آخرِ ليلةٍ قضيتها في الزنزانة القذرة، سوى بعضٍ من خيالاتٍ متفرقةٍ تجثمُ على صدري كأنها صخرةٌ ضخمةٌ من جبال الجحيم.

أذكر ركلاتِ الثورِ الهائج أجدع، وعصاه الكهربائية التي تلسعُ جسدي، فترميني مثل كرةٍ أهتزُّ وأتدحرج على الأرض، وصرخاتي بعد كل ركلةٍ على ساقي المصاب، هذا كل شيء.

******

سلّموني كتاباً موقّعاً من جهاتٍ عسكرية عليا بأني غير مناسبٍ للخدمة العسكرية، لأنَّني بكلية واحدةٍ وساقٍ معوجَّة، ثم أخبروني أن أذهبَ إلى البيت، وحذّروني من أن أفتحَ فمي بأيّ شيءٍ له صلةٌ بما حدث في الزنزانة، وأنني سأكون تحت المراقبةِ، حتى أنهم قد يستدعوني للاستجواب في أيةِ لحظة.

هل كنت أحمقاً ضعيفاً عندما قرّرتُ إطلاقَ الرصاص على قدمي، فخرجتُ بساقٍ تالفٍ وكليةٍ واحدة؟!

هل لأنَّني أفكر، بأن لا أساقَ مثل البهيمةِ، يجب أن أُقتلَ، أو أخرجُ إنساناً معاقاً من سجونهم؟

ألم تنتحرِ البغالُ من شدّةِ الإنهاكِ على الجبهات الشمالية؟ ألم يجنَّ كثيرٌ منا، ويسلّم نفسَه للجيشِ المعادي بعد أن فقد قدرته على الصبر في الخنادق لسنواتٍ حمراء وسوداء لا نهار فيها!

حتى الأطفال استبدلوا لعبةَ الغمّيضةِ في حيّنا بلعبةِ القاتل والمقتول، كان أكبرهم سنّاً يحملُ مسدّساً بلاستيكياً، ويتقمّصُ دورَ الرامي خلفَ الساتر، فيما يتقمّصون هم دورَ الضحية، يهربون ويصرخون ثم يسقط أحدهم أرضاً، وقد غطّوا رفاقه جسدَه بالعلمِ ورفعوه على أكتافهم يصرخون الله أكبر، فيما يتقنُ هو دور الشهيد.

هل أنا معتوهٌ لأنَّني أتألم ولأنَّني غير راض؟ ولأنَّني أستنكر النذالة! لقد خلقني الله من دمٍ دافئ وأعصاب . إنَّ النسيجَ العضوي لابد وأن يتجاوبَ مع المؤثراتِ الخارجية، لذا إن شعرنا بالألم، نصرخ ونبكي، وأن رأينا النذالةَ؛ نغضب.

عدتُ بعد ثمانيةِ أشهرٍ إلى المنزلِ، كان الشتاءُ قد حلَّ وسماءٌ رماديّةٌ ملبّدةٌ بغيومٍ سوداء تخيّم على بغداد، طرقتُ البابَ بيدٍ ناحلةٍ، ففتحتْ لي المرأةُ المسكينةُ البابَ وكان السوادُ يغطّيها من قمةِ رأسها إلى أصابع قدميها، يبدو أنها تقبّلت موتي وفقداني، ولبستْ السوادَ. لا أدري هل أخذتْ في روحي العزاء من الأقارب والجيران، أم جلستْ تنتحبُ وحيدةً في وكرنا المتهالك.

- حسيييييين!!!يا ألله...

"يمة وليدي، معقولة رجعتلنا... حسين! يمة فدوة أروحلك"

كانت تحتضنني بكلِّ قواها المتبقية، تشمني، تقبّل وجهي ورأسي، تغفو على صدري كأنها هي طفلتي، ترتعش رهبةً وفرحاً، وتصرخ باسمي بصوتٍ متقطّع.. ح.. س.. ي.. ن.. حتى أغمي عليها وهي بين يدي.

صرختُ.. أمي، أفيقي أرجوك..

أخذتها بين ذراعي ووضعتها قربَ المدفأةِ، ثم رششتُ وجهها ببعضٍ من الماء البارِدِ، فوجدتها تحاولُ فتْحَ عينيها المجْهدتين بصعوبة.. وحين أفاقتْ من غيبوبتها سألتها:

- أمي، لماذا تلبسين الأسود، هل أخبروك بموتي وصدقّتي بخدعتهم؟

لم تجبني، كانت ما تزال في خضمِّ دهشتها، وراحت تحدقُ في وجهي، وتضمني إلى صدرها، كما كانت تفعل حين كنت صغيراً وحين كان حجرها وصدرها بيتي ومخدعي.

جلستُ متربّعاً على الأرضِ بجوارها، قربَ المدفأة، أنصتُ لقطراتِ المطرِ التي تنقرُ النافذة.. فقد أطلقتِ السماءُ غيظَها برذاذٍ قليل، ثم بدء يشتدُّ حتى صار ودقاً شديداً يبللُ واجهاتِ البيوتِ ويضرب النوافذ.

وضعتُ ذراعي على كتفها الذي تبرز منه عظامها الصغيرة، واحتضنتها. وأنا أردُّ على أسألتها الكثيرة، بما يناسبُ ضعفَ قلبها وجسدها.. أخبرتها عن حماقتي وإطلاقِ الرصاصةِ على ساقي، واخترعتُ كذبةً كبيرةً عن احتجازي في سجنٍ نظيفٍ للتحقيق معي. ولم أخبرها كيف كانوا يعاملونني مثل كلبٍ أجرب. يطفئون أعقابَ سجائرهم في

جسدي، ويتبوّلون على جرحي المفتوحِ في ساقي حتى تقيح.
خبأتُ عنها قصة كليتي المفقودة، ورفعتُ في وجهها كتابَ إعفائي من الخدمة العسكرية، كي أريحَ قلبها، مستفيداً من عدمِ معرفتها للقراءة والكتابة، فلا يمكنها تمييز سببَ إعفائي على أنني معاقٌ وبكليةٍ واحدة.

# (17)

ثلاثةُ أيامٍ مرّتْ على وصولي إلى البيت، وأنا أتصل بندى، لكن في كلِّ مرة كانت والدتها هي من يرد على الهاتف، صورتها وهي مقيّدةُ اليدين، والدموعُ السوداءُ تغرق وجنتيها الناصعتين، لا تفارق مخيلتي، أعلم أنها تعتبرني خائناً لها ولم أفِ بوعدي، لكنني قلقٌ جداً، ولا أدري ماذا حل بها.

قررتُ أن أتكلّمَ مع والدتها، وأسالها عن ندى، فأدرتُ قرصَ الهاتفِ وانتظرت الرد:

- أللووو

- مساءُ الخير

- أهلا بني، من يتكلم

- عفواً، أنا زميلُ ندى في العمل.. كنت مسافراً لأسبوعٍ كاملٍ، وقد عدتُ اليوم. الحقيقةُ لدي خللٌ في تدقيقِ الحساباتِ، وأبحث عن الست ندى، طالباً المساعدة.

- أنت زميلها قلت لي؟!

- نعم

- إن كنتَ زميلها في نفس المكانِ، فكيف لا تعلم أن ندى تركتِ العملَ منذ شهرين، وتزوّجت، ولم تعد تسكن معي

الآن، يا بني، إنها في بيتِزوجها العقيد سلام في حي اليرموك.

ارتجفتْ يدي.. انتقلتْ الرجفةُ لسائرِ جسدي، لروحي، شعرتُ بالدوار، وكأنني غبتُ عن الدنيا في دوّامةٍ بلا لون، وقعتْ سماعةُ الهاتفِ من يدي، بينما أم ندى في الطرفِ الآخر من الهاتف، وكأنها تصرخ من عالم بعيد.

- أللووووو.. ألوووو

راحتْ معا ولُالأسئلةِ تحرث في رأسي.. كيف يمكن لندى أن تخونني! كيف لها أن تسحقَ تحت قدميها كل ما حلمنا به وخططنا له معا؟! كنتُ أود أن أبصقَ دمَ حزني في وجهِ عقيدها المشؤومِ، ضخم الأنف ذاك، كم مرةٍ حدّثتني عنه ندى، كان جلدها ينكمشُ وهي تخبرني بطلبهِ للزواج منها، عقيدٌ أرملٌ بلا أطفالٍ تُوفيتْ زوجته في حادث سير، يعاقر الخمر، هوايته المفضلةُ إطلاقُ الرصاص على الطيورِ والحمام، وهي تحلّق وتدور تحت السماء الزرقاء، فتتساقط واحدة تلو أخرى بريشٍ ملطخٍ بالدم على الرمال الساخنة للبرية.

في حي اليرموك إذن يا ندى! حيُّ الأغنياءِ وليس حياً شعبياً فقيراً نتكدس فيه مثل البهائم في المسلخ، وزوجٌ برتبة

عقيـد.. حلقـتِ نحـو رغـدِ العـيش يـا نـدى، ونكثـتِ عهـداً حفرتُهُ في نخاعِ عظامي وأضلعي...
اخترتِ رجلاً غنياً.. ماذا سيعطيك أجيبيني؟ بعضَ الأحذيةِ والفساتين من الماركات العالمية، عطوراً مستوردة، أرائكاً وثيرةً فارهةً وسجاداً فاخراً، أريكةَ كيلوباترا، المصنوعةَ من ريشِ النعام، أم فراشَ هارون الرشيد العائم؟!
أتعلمين شيئا؟... كنت سأعطيك أنا كُلّي.. نعم كلي..
لكـن مـاذا ستفعلين برجـلٍ لا يمنحـك سـوى قلبـه، رجـلٌ معاقٌ .. مثقوبُ الجيب، حرُّ الفكر، يلعن القيودَ ويستنكرُ أن يُساقَ الرجالُ سوقَ البهائم؟ ربما أنتِ محقّةٌ يا ندى، فماذا سيمنحك قلبُ عاشقٍ مفلس، يحملُ في كفّهِ فتاتِ الخبزِ للحمام، بدلاً من بندقية الصيد على كتفه، رجلٌ يُطعمُ الطيورَ، وينصتُ لهديلِ الحمائم، وتغريدِ العنادل.. يزدري صيدها، ويشمئزُّ من لؤمِ صيادها.

# (18)

ساقونا إلى الجبهاتِ قسراً، كُنّا بين مؤمنٍ ومعتقدٍ بما يقاتل ويدافع عنه، وبين رافضٍ منساقٍ جبراً، لكن عندما تمتدُّ وتطولُ الحربُ مثل لعبةِ جرّ الحبلِ ويُسحقُ الرجالُ كأنهم أسرابُ نملٍ لا تساوي شيئاً في نظرهم؛ لا تصدِّقُ بعدها أنَّ من يقفُ على الجبهاتِ هو مؤمنٌ بحب الوطن.. إنه يقف رغماً عنه، فسياطهم تلوحُ في وجهه، وسجونهم تغصُّ بالفارّين من الخدمةِ العسكرية، شبابٌ تفتّحوا مثل الرياحين والأزهار حين أبصرتِ ضوءَ الشمس، ساقوهم مثل الخرافِ ليدافعوا عن مجدِ الزعيمِ، وكان جزاءُ رفضِهم؛ وصْمُهم بعلاماتٍ فارقةٍ تدلُّ على التخاذلِ والخيانة.

كانوا يقطّعون آذانهم وألسنتهم، ويوصّمون جباههم بخطٍّ أسودٍ غليظ، كي يبقى العارُ يلاحق رجولتهم مدى الحياة.

لكن أيُّ عارٍ هذا؟ هل أصبح حبُّ الحياةِ ورفضُما لا نؤمنُ به عارا؟

نحن في السنةِ السابعةِ من الحرب، والرفاقُ والقادةُ يعيشون في القصورِ يقتسمون أوهامَ النصرِ الكاذب.
خرجتُ من سجونهم معاقاً، حبيبتي استباحها ضابطٌ من ضبّاطهم برتبةِ عقيدٍ في الجيش، يؤمن بما يؤمنون به، وهو - بالتأكيد - يحملُ شارباً أسوداً طويلاً على وجههِ مثلَ شواربهم، وينظرُ إلى الناسِ باستعلاءٍ كما ينظر زعيمهم.
الكلّ أصبح نسخةً من الزعيم، يرتدي البذلةَ العسكرية ويرفعُ أنفه ورأسَهُ بكبرياءٍ مزيّف، يضحك كما يضحك الزعيمُ، ويمشي كما يمشي، ويتكلم بمفرداتِ الحزبِ، والثورةِ، والحرية، والاشتراكية، كما يتكلم هو.. إلا سيجاره الكوبي الفاخر لم يجرؤ أحدٌ على حملهِ بين شفتيه تحت شواربهِ مقلداً الزعيم، ربما لو فعل سيغمسون رأسَهُ في المنفضةِ بدل السيجار.
كلهم رؤوسٌ فارغةُ ترددُ شعاراتٍ مستهلكةٍ كي يحتفظوا برتبهم العسكرية، والنجومِ الذهبيةِ على أكتافهم.
لم نكن مواطنين.. كُنَّا مجموعةُ خرافٍ بيد جزّارها.
سرقوك مني ياندى...
صار نهاري مظلماً، وليلي طويلاً، أتقلّبُ بنارِ شوقي إليك، محاولاً التغافلَ عن جرحي، والتناسي، حتى ينفدَ ما تبقّى

لي من النسيانِ في قعرِ الزجاجة، فأبدأ برجمِ تلك الزوايا المظلمةِ حتى أملاها بشظايا الندم.
سرقوك مني حبيبتي...
الآن فقط فهمتُ معنى تلك الرؤيا المشوّشة، وأنا بين الحلمِ والواقع، أترنَّحُ على سريرِ غرفةِ العنايةِ المركّزةِ الأبيض.
يداك المقيّدتان.. دمعك الأسود.. فستانُ الزفافِ الذي كنتِ ترتدين.. سرقوا عشبَ عينيك يا حبيبتي، وحوّلوه إلى حقلٍ يابس أضرموا النار فيه.
إنهم يضرمون النارَ في كلِّ خضرةٍ حولهم، في كلِّ رأسٍ تدورُ فيه فكرةٌ تعارضُ أفكارهم.

هشّموا كليتي اليمنى.. لا أعرف على وجهِ التحديدِ ما الذي حصل في سجنهم الأسود، واحتلوا حبيبتي برتبهم وأموالهم..
أشعلوا النار في قلبي ياندى، ناراً لن تنتهي، فهم ماهرون في إشعال النيران.. وها هي مشتعلةٌ منذ سبع سنوات.. ولا أظنها ستخمد.

# (19)

# (الهدنة)

لم أتمنَّ أن أمتلكَ ساقين قويتين، وجسداً شابّاً كما تمنيته هذا اليوم، الفرحةُ تقفز من صدري وروحي، تسحبني إلى أصواتِ الزغاريدِ هناك. كلُّ جاراتي خرجنَ إلى الشارعِ يزغردْنَ ويرقصْنَ بحركاتٍ مضحكة، لكنها من القلب، فقد حصلَ ما لا يخطر على البال.

قد انتهتِ الحربُ.. يا إلهي! لا أكاد أصدق.. لستُ وحدي المجنونةُ هنا من الفرح، فقد جُنَّ الجميع.

إنهم يتجمّعون في كلِّ مكان.. الأزقةُ والساحاتُ تكتظ بالناس، يرقصون بجنون، ويضحكون بهيستيريا... انتهتْ حربُ الثمان سنوات في يومٍ وليلة.

حسين.. حسين.. هيا يا ولدي، اخرجْ واحتفلْ مع الجيران، فلم يبقَ أحدٌ في بيتهِ سوى العجائز أمثالي، ولو لم تمنعْني مفاصلي المتهرئةُ من الخروج؛ لخرجتُ ورقصتُ مع الناسِ حتى الصباح...

- نعم يا أمي، انتهتِ الحرب، انتهتْ الخديعة، انتهتْ أطولُ حربٍ في تاريخِ القرنِ العشرين، والتي كان ممكناً أن

تنتهي منذ أول سنةٍ لها. دعيهم يرقصون.. دعيهم، قد جُنَّ الناسُ ولا ريبَ، فالمجنونُ لا يعلم لماذا يضحك، ولماذا يبكي أحياناً أخرى..

- شششششش اسكتْ يا حسين، ما بك! أتريدُ أن يرموك في السجن مرة أخرى؟
اتركِ الناسَ وشأنهم، إنهم يحبون الرئيسَ ويفدونه بدمائهم.
-أضحكتيني والله يا أمي، حتى أنتِ يا حاجّة! تتكلمين مثل الأهازيجِ الوطنيةِ التي صدَّعَ رؤوسنا بها التلفازُ والمذياعُ ليلَ نهار. "بالروح بالدم نفديك يا.. ... ".
اسمعي يا أمي، إنَّ الرجلَ لا يقوى على البقاءِ ساكناً هكذا دونَ حروب، فأين سيجدُ مجدَهُ وعظمتَهُ إذا عشنا بسلام! انتظري وسوف ترين، إنها محضُ هدنةٍ تافهة، يخدعُ بها المساكين، لكنه سيسوقنا إلى حربٍ جديدة.. أنا واثق من ذلك..
لكن مع من ستكون تلك الحرب ومتى؟ وحده الله يعلم.
هل تعلمين كيف دخلنا الحرب يا حاجة؟ دخلناها بعد أن تراجعنا عن اتفاقٍ مبرمٍ في سنة 1975وحاربنا ثمانية

سنوات، ودفعنا آلافَ الضحايا، ثم انتهتِ الحربُ بعد أن عدنا واعترفنا بتلك الاتفاقية مرغمين.

- لا أفهم ما تقول يا حسين، على ماذا اتفقنا، ولماذا نقضنا الاتفاق؟

- وأين ذهبت أنا يا حاجة.. صبّي لنا الشاي وسأقصُّ عليك الحكايةَ، لكن أعديني أن لا تأتيك الكوابيسُ ليلاً.

غادرتني أمي، ودخلتْ تعدُّ الشايَ في المطبخِ، وبعد عشر دقائق عادتْ وهي تحملُ بيدها أكوابَ الشاي التي تفوح منها رائحةُ الهال ووضعتها بيننا ثم بادرتني قائلة:

- احكي لي الآن الحكاية..

- يا للعجائزِ كم تعشقن القصص والحكايات.

- اخرسْ يا ولد، أنا لست عجوزاً.. ألم ترَ ضفائري؟ خذْ قلبها بيدك إن وجدتَ فيها شعرة شيبةً واحدة؛ تكلم ساعتها بما تشاء.

- حاضر يا ست البنات، اسمعي:

كان ياما كان في قديمِ الزمانِ ولا يحلو الحديثُ إلا بذكرِ الرسولِ عليه أفضلُ الصلاة والسلام..

- ما بك يا ولد، هل تراني طفلةً صغيرةً تحكي لها حكايات ما قبل النوم؟ هيا تحدّثَ كالرجالِ. أريد أن أفهمَ في السياسة كما تفهمون أنتم.

- الله الله يا أم حسين.. تتهمينني بأنني أحشر أنفي في السياسةِ، وأقرأ الكتبَ التي تتلفُ عقلي وتفكيري، وتبين أنني ورثتُ هذا عنك.

اسمعي يا أمي اتفاقية 1975 تُسمى باتفاقية "الجزائر" وقد وقعها نائبُ الرئيس العراقي والذي هو الرئيس اليوم. مع شاهِ إيران الذي كان يحكمها آنذاك، وكانتْ بحضورِ الرئيس الجزائري "هواري بومدين" ولذا سُمّيتْ باتفاقية الجزائر.

- طيب عرفنا الاسم الآن.. لكن على ماذا اتفقنا؟ هل تشاجر معنا هذا الشاه على نفطٍ، أممال؟

- لا.. لا هذا ولا ذاك، بل كان بيننا وبينهم خلافٌ عميقٌ بعمقِ التاريخِ على النقطةِ الفاصلةِ في مياهِ شطِّ العرب، والتي ترسم حدودنا مع حدودهم الدولية، وهذه النقطةُ تُسمى نقطة خط القعر، وتعني النقطةُ التي يكون فيها الشطُّب أشدِّ حالاتِ انحداره. وهذا الكلام رفضه العراق تماماً وقال: إنَّ شطَّ العربِ كلهُ مياهٌ عراقية ولا دخل لإيران فيه.

شربتْ أمي كوبَ الشاي الساخنِ، وشمّرتْ عن ساعديها استعداداً لحديثٍ طويل:

- هذا الكلام صحيح..

إنَّ أسمَهُ شطُّ العرب، هذا يعني أنه ملكنا نحن العرب.

-تريّثي قليلاً يا أم حسين، ولا تأخذْك الحماسةُ، دعيني أكملُ حديثي بالله عليك

اسمعي يا أمي:

في سنة 1975قامتْالحكومةُ العراقية بتوقيعِ الاتفاقيةِ مع إيران، ووافقتْ على (نقطة القعر) في شطِّ العربِ لرسمِ الحدود بيننا.

لكن حين حدثتْ الثورةُ في إيران وتراجعنا عن تلك الاتفاقية، فشبَّ النزاعُ بيننا من جديد.

- يعني صارتِ الحربُ بسبب البلوةِ السوداء.. نقطة الصفر

- نقطة القعر يا أمي.. القعر

- أووووه يا حسين دوختني.. صفر أو قعر ما دخلنا نحن.. المهم انتصرنا

- انتصرنا!.. على من .. .. يا حاجة على من انتصرنا أخبريني؟ دخلنا أطولَ حربٍ في القرن العشرين، وخرجنا

منها دون أن نحدثَ تغييراً في التاريخِ، سوى تسجيلٍ عددٍ قياسي من القتلى والمعاقين.

أتعلمين من نشبه نحن يا أمي؟

- من يا حسين ؟

- نحن نشبه فيلاً حِيكتْ عليه مؤامرةٌ من أجلِ ترويضه.. انهالوا عليه عشرةُ رجال، أو يزيد، ضرباً بالعصي والهراوات، وحبالهم تقيده بالكامل، ثم دفعوا به نحو حفرةٍ عميقةٍ، وحين سقط فيها مغلوباً على أمره؛ راحوا يضاعفون ضرباتهم عليه حتى أصابه الإنهاك الشديد. عندها يأتي رجلٌ من خارج تلك المجموعة من الرجال الذين أشبعوا الفيلَ ضرباً، وقد ارتدى لباساً مميزاً، فيرفع ذراعه، ويأمرُ الرجالَ بالتوقّفِ عن ضربِ الفيل، يطيعُ الرجالُ أمره ويخرجون من الحفرة، تاركين الفيلَ فيها. وهكذا تعادُ هذه المسرحيةُ كل يوم، فيعذِّبُ الرجالُ الفيلَ بهراواتهم، ثم يأتي الرجلُ المنقذُ ويمنعهم عن فعلهم المشين، وقد تستمر تلك المسرحية عشرة أيام أو أكثر، حسبما يحدده الرجل المنقذ، وبعدها يأتي يومُ ختامِ المؤامرة، يومُ خلاصِ الفيلِ على يد المنقذ الذي يأتي في اليوم الأخير، فيرفع ذراعَهُ، عندها يرمي الرجالُ عصيَّهم ويخرجون من الحفرة تاركين الفيلَ والرجلَ المنقذَ فيها. يمتطي المنقذُ

ظهرَ الفيل، ويأمره بالخروج من الحفرة بمساعدةِ الرجال، فينحني الفيلُ صاغراً، مطمئناً، مذعناً لأمر منقذه وسيده، ويسيرُ الفيلُ، والمنقذُ يعتلي ظهره.. وقد آمنَ الفيلُ المخدوعُ واعتقد تمام الاعتقاد ببراءة منقذه، وحسنِ نيّتهِ، وسعةِ فضله، ومن المحال أن يرفضَ لمنقذه أمراً بعد اليوم، أو يخالجه الشكُّ في صفاءِ سريرته.

-أووووه كفاك هذيان يا حسين.. ما بك يا ولدي أنت تهذي كمن تلبّسه جِنٌّ خبيث.. تعال معي عند الشيخ أبي محمود، دعْهُ يرقّيك بآياتِ الله، فيُخرجَ منك كلَّ خبيثٍ تلبَّسك.

-قد أصبتِ والله يا أمي..

-ماذا ! هل وافقتَ أن تأتيَ معي عند الشيخ أبي محمود؟

- كلا يا أمي المسكينة الطيبة، أنا لا أتحدث عن شيخكم، لكنك أصبتِ في نعتِ كلِّ من فهمَ الحقيقةَ بالمجنون، نعم إنَّ من يكتشفَ الحقائقَ لن يسمحَ بأن يعتلي ظهره منقذٌ دجّال.

********

لم تكن أمي تعي غير ما تسمعه من الهتافاتِ الحماسيةِ التي يضخّها لنا التلفازُ والمذياعُ ليلَ نهار. وماذا يريد الناسُ البسطاءُ أمثال أمي سوى السلام! بل ماذا يريد الناسُ غيرُ البسطاءِ أمثالي سوى السلام! ألم يكن هناك حلٌّ لننعمَ بالسلام! أم إنَّ تلك الكلمةَ نُزعتْ من القاموس لأنَّها خرافة، مثل طائرِ العنقاءِ، أو حورياتِ البحرِ ذواتِ الأثداءِ العاجيةِ والشعور الطويلة؟

وربما تطالنا الخرافةُ نحن أيضاً طلابُ السلام في يوم ما.. فتقصُّ الجداتُ حكايتنا على مسامعِ الأطفالِ، تحت ضوءِ الفوانيس الخافتِ في رداء العتمة، بين الجبال العالية، أو في خيمِ البدو الرُّحَّل مع طقطقةِ فناجين القهوة المرة!

# (20)

سنتان وديعتان.. لملمتِ الناسُ فيها جراحَها، وملأتْ رئاتها من الهواء النقي غير الممزوج بالدخان والبارود، ولملمتُ فيها أنا بعضاً مني، محاولاً ترميمَ انكساراتي، ومدارياً ألمي.

خبَّأتُ عينيك العشبيّتين في ذاكرتي.

نعم، أعلم أنك ملكُ رجلٍ آخر.. تنثرين الربيعَ في زوايا بيتهِ بخضرةِ عينيك.

أتذكرين حين كنتُ أغني لك؟

ما زلتُ أدندنُ بتلكِ الكلماتِ حين يغشي خيالك وحدتي، ويحملُ لي نسيمَ الصباح شذاك:

يا نبعة الريحان حني على الولهان.. حني على الولهان..

جسمي نحل والروح ذابت وعظمي بان ذابت.. وعظمي بان

من علتي ال بحشاي ما ظل إلي من راي.. ما ظل ألي من راي

دائي صعب ودواي ما يعرفه إنسان.. ما يعرفه إنسان..

الخيالُ هبةٌ من الحياةِ، تتعطفُ بها على كلِّ عاشقٍ مفلس. ستسكنين أحلامي يا ندى ما حُييتُ؛ إنه وعدُ عاشق.. ولن يخلفَ العاشقُ المجنونُ وعده.

*******

تزوجتُ بعد أن انتهتِ الحرب، وبعد أن أقسمتْ أمي أنها ستضربُ عن الطعامِ إن لم أتركْ جنوني وأتزوج، كانت ترتعدُ خوفاً عليَّ، وتعتقدُ بأنني جننتُ بسببِ حبسي في الزنزانة، وبسببِ وحدتي، أهيم على وجهي دون زوجة أو حبيبة.. يا للعجائز، كم يملكن من خيالٍ واسع!

ليس خيالهن فقط هو الواسعُ، بل شبكةُ اتصالاتهنَّ العجيبةِ، والممتدةِ من حيٍّ إلى حي، فقد كانت تعرض عليَّ كلَّ ليلةٍ خارطةً لبناتِ الحي، وتطلبُ مني أن أختارَ زوجةً منهنَّ، وقد كانت تذكّرني بفعلها هذا، بصاحبِ محلِّ الستر الرجالية، وهو يضعُ أمامي ستراً بألوانٍ وموديلاتٍ مختلفة، منتظراً مني أن أختار سترتي .

أظنُّ أن شريكَ حياتنا هو من ينادينا، ولسنا نحن من نبحثُ عنه.. شيء ما فيه سيجذبك، سيقول لك اقترب، أنا بيتك؛ وهذا عينه ما حدث معي.

كنت أصادفها كل صباح عند خروجي لعملي، فتاةٌ شقراءُ بضفيرةٍ تنسدلُ حتى ما بعد خصرها الرقيق، عيناها البنّيتان تملئاني بالراحةِ والسكينة، أحسستُ أن عينيها تخبرني بشيءٍ تحاولُ هي إخفاءه، وميضٌ يفضحُ مشاعرَ حبٍّ يغمرُ روحها، لكن لسانها يرفض التصريح .

زوجتي سلمى امرأةٌ طيبة، تعملُ باحثةً اجتماعية في المدرسة الثانوية للبنات، الواقعةُ على رأسِ الزقاق الذي يقع فيه بيتنا، كان زواجي ضرورةٌ من ضروراتِ الحياةِ الكثيرة، ولم يكن بدافع الحب. لكنني الآن أكنُّ لها مشاعرَ الودِ والامتنان، فقد جاهدنا معاً طيلة سنوات زواجنا، وأنجبتْ لي أولَ طفلٍ بعد سنةٍ واحدةٍ من زواجنا، أسميته علي، على اسم والدي، ولأحققَ الرغبةَ الملحّة لوالدتي.

مشكلتي الوحيدة في زواجي هذا هو والد زوجتي، إنه بهلوانٌ متمرس، رجلٌ انتهازي، لا يحمل ولاءً سوى لنفسه وأمواله.

فكلما قدّمَ كشفاً بأسماءِ رجالٍ رفضوا الانتماء لحزبهِ؛ يُكافأ باعتلاءِ السلّمِ درجةً أخرى.

الأستاذ شاكر والد زوجتي، رجلٌ قصيرُ القامة، أصلعُ الرأس، له عينان كعيني الصقر، ولسانٌ مثلُ شفرةٍ حادة.

يتجنبونه الناس حفاظاً على ماءِ وجوههم، ويتملّقون له آخرون خوفاً وطمعا.

كلما رأيته وددتُ لو غسلتُ صلعته بالرمال الساخنة..

فالهدنةُ القصيرةُ انتهت، ولم تمر على سعادةِ الناسِ بانتهاء الحرب سوى سنتين. وفي صيفٍ قائظٍ لشهرِ أغسطس جُررنا إلى هوّةٍ سحيقةٍ تسمى غزوا.. غزو دولةِ الكويت، الجارةِ القريبة جداً.

إنه المهرُ الذي علينا أن نقدّمَه كي يرضى الزعماء، نقدّمُ حياتنا التي لا نملك سواها؛ كي يحققَ الرؤساءُ مجدَهم الفردي.

لكننا لسنا في زمن المعلّقات ، ولا زمنِ الفتوحات، إننا في زمنٍ تحكمُهُ الولاياتُ المتحدة، وتحفر البئرَفيه إسرائيل.. ليسقطَ فيه الأغبياء.

فها نحن في بئرٍ مظلمة، نعيشُ في قاعِها منذ عُوقبنا بحربِ الخليج الثانية، جزاءَ غزونا للدولة الجارة.. عُوقبنا على فعلٍ لايدَ لنا فيه.

وبدل عملٍ واحدٍ، صرتُ أعمل صباحاً ومساءً كي أسدَّ حاجتي وحاجةَ أولادي الأربعة اللذين رزقت بهم في سنواتِ الحصار والجوع.

كنتُ أشتري الملابسَ المستعملةَ، أنظّفها وألبسها؛ كي أتمكنَ من أن أوفّرَ لأولادي ملابساً جديدة، إنها لعنةُ الغزو.. سنواتٌ من الحصارِ لم تبقِ لنا مانسترُ به أجسادنا.. باعَ جاري السجادةَ الوحيدةَ التي يجلس عليها في الشتاءِ ليدفئَ عجيزتَه اليابسة. واشترى بثمنها طحينا ورزّا.

كان بعضُ الناسِ يُقْدِمُ على الانتحارِ حفاظاً على كرامته من الهدر، كانوا يفضّلون الموتَ على أن يمدوا أيديَهم للناسِ ولذلِّ العوز.

في أحدِ الأيامِ سمعنا أنَّ رجلاً من البصرةِ أقدم على قتلِ بناته الأربعةِ من شدّةِ الفقر.. فضّلَ قتلهنَّ على تشردهنَّ وضياعهن، أحياناً يتمنّى أحدنا الموتَ من شدّةِ بؤسه، كلما شاهدتُ الأطفالَ بثيابهم الرثّة في الطرقاتِ؛ أتذكّر تلك اللوحةَ الحزينةَ للرسامِ الدانماركي "هانز أندرسون" وهو يصوّر صبياً صغيراً متشرّداً، شاحبُ الوجهِ، ناحلُ الجسمِ، قد أخذَ منه الجوعُ مأخذاً، يختبئ خلف الجدار من البردِ والعواصفِ في قريةِ صيدِ الأسماك، ويظهرُ الموتُ بهيأةِ رجلٍ عجوزٍ مخيف، محدودبُ الظهرِ، يضعُ يدَه اليمنى على رأسِ الصغير، فيما تحمل يدُهُ اليسرى منجلاً يخطفُ به الأرواح.. كان اللونُ الترابي يخيّم على اللوحة، وملامحُ

الطفلِ والعجوزِ تبيّن أنَّ الموتَ قد يكون رحمةً للصِبيةِ المتشردين.
سنواتُ الحصارِ نشّفتِ البطونَ، وكشّفتِ العورات...
إننا في القاع نقتاتُ الحصى والرمال.
لا أدري وأنا في جوعي ومعركتي مع الحياة.. هل كانت تعاني مثلي!
هل زوجةُ العقيدِ جرّبتِ الجوعَ والمهانةَ في هذه السنواتِ العجاف؟
ياترى.. أين أنتِ الآن يا ندى؟
هل أصبحتِ أمّاً، هل أنجبتِ بنتاً لها لونُ عينيك العشبيتين؟
لا أعلم هل يحرّم اللهُ عليَّ أن أشتاقك، وأتلهّفُ لنظرةٍ واحدةٍ من عينيك؟
أبنائي يكبرون يا ندى، ولدي عليّ بدأتْ تتفتحُ زهرةُ صباه وشبابُه هذه الأيام، لو رأيتيه الآن لقلتُ أنَّ له لونُ عينيَّ العسليتين، ونظرةُ الإصرارِ والتمرّدِ نفسها.
هل ما زلتِ تذكرين عيني يا ندى! أم طَوتِ الأيامُ ذكراي، وصار وجهي نسياً منسيا..

# (21)

كنا نفترشُ الأرضَ في غرفةِ المعيشةِ نتحلقُ حولَ صحنٍ من الخبزِ المنقوعِ بالبهارِ والماءِ والملحِ، كانت قد وضعته زوجتي وسطنا أنا والأولاد. كان هذا النوع من الطعام هو ما نلجأ إليه حين ينفد كل ما لدينا من مخزونٍ للرز والخضروات، وغالباً ما كان ينفد بعد أول أسبوع من الشهر. مددتُ يديَّ إلى صحنِ الخبزِ المطبوخِ، فلسعتِ السخونةُ إصبعي، فأبعدت يدي بانتظار أن يبردَ الطعامَ قليلا، ثم جلتُ بنظري على أولادي الجالسين معنا، وانتبهتُ إلى أنَّأ صغرَهم سنّاً لم يكن في موضعهِ، فهممتُ بالسؤالِ عنه وقبل أن أبدأ سمعتُ صراخاً يأتي من صوبِ المطبخِ، فركضتُأتفقّد الصغيرَ خوفاً من أن يكون قد ارتكبَ حماقةً، وراح يلعبُ بنار الموقد، وحين وصلتُ إلى هناك شاهدتُ ولدي وقد أمسكَ بعنقهِ الأجدعُ ذو الحدبة، الذي كان يعذبني في زنزانتي! ورأيتُ سفوداً مشتعلاً في يدهِ اليمنى، وقد علّقَ فيه قطعةً كبيرةً من اللحمِ المشوي، لكنِ الدم ما زال يتقاطر منها. وحين دققتُ النظرُ جيداً في قطعةِ اللحمِ؛ أدركتُ أنها على شكلٍ كليةٍ شويتْ على النار حتى تفحّمت، ولم يوقفْ تفحّمها نزفَ الدمِ منها. ثم راح

يحاول إطعام ولدي الصغير من تلك الكليةِ الفاسدةِ، حينها صرختُ بصوتٍ كالرعدِ فأدار المسخ رأسه الكبيرَ نحوي وعيناه تشتعلا نمثل لهيبِ الجحيم الأسود، بينما كان ولدي يصرخُ فزعاً شعرتُ بقدميه الصغيرتين تركلني في خاصرتي، رغم أنه لم يتحركْ من موضعهِ وكفُّ المسخُم طبقةٌ حول عنقه الصغير.

وحين أمسكتُ بطفلي من كتفيه، محاولاً سحبه من بين ذراعيّ وحشِ الزنزانة ذاك؛ رفعَ طفلي من حدّةِ صراخهِ. عندها سمعتُ زوجتي سلمى تنادي باسمي حسين.. حسين.. ما بك؟

وحين استيقظتُ، وجدتني ممسكاً بولدي الصغير النائم بيننا أهزّهُ بقوة، و قد راح صراخُه يوقظُ الجميع.

# (22)

توفَّيتْ أمّي خلال سنواتِ الحصار، وذهبتُ إلى رحابِ ربّها راضيةً مرضية، بعد رحلةٍ طويلة قطعتها ما بين الصبر والجزع، وثقلِ ما تحمل من همومٍ.. نحن جزءٌ كبير منها.. والحربُ تلو الحرب، ثم حصارٌ وجوع، ويبدو أنها كانت محظوظة، فغادرتْ قبل أن تحلَّ علينا حربُ احتلالِ أو تحريرِ بغداد، لا أدري أيّاً من المسمياتِ أختارُ لأنَّها تعاسةٌ في كل الأحوال.

أغمضتْ أمي عينيها إغماضتها الأخيرة، بعد أن قُرّتْ عيناها وارتاحَ بالها بزواج أختي من ابن جارنا عمر الصباغ.. الصباغُ لم يكن لقباً لعائلته، بل هو اسم الشهرةِ الذي أغدقه عليه أهلُ الحي تيمّنا بمهارةِ أصابعه في تدويرِ فرشاةِ الصباغةِ على الجدران، الحائلة اللون، أو التي لم تُلوّنْ بعد، عمر أشهر صباغ في بغداد، عمر الصباغ.. هكذا كانوا ينادونه.

لم يكن عمر ميسوراً، ولا حاله أفضل من حالنا، لكن أمي كانت تعد عمرا بمقامِ ولدها، وتردّدَ دوما أمام أختي فضائلَ عمر وشهامته، حتى اقتنعتْ أختي بالزواج. ثم أنها

كانت تمكثُ في كل صفٍّ دراسيٍّ سنتين حتى تتمكن من اجتيازه.

أما أنا فقد أعطيتُ موافقتي على هذا الزواج متأخراً، بعد أن أعيتني كل الحيل في تحبيبِ الدروس إلى أختي، التي لا تكره شيئاً في الدنيا ككرهها للدراسة.

فليكنِ الزواجُ حياةً أخرى لها، يبدو أنها لن تخفقَفي استيعابها.

كنتُ أزورُ أختي كثيراً، فهي لم تبتعد عنا بعد زواجها، بل قد غيّرتْ مكانها فحسب، من بيتنا إلى بيت جارنا عمر، ولم أشاهدها في كل زياراتي تلك في حالة من عدمِ الرضا أبداً، يبدو أنَّ أمي كانت تتميزُ بفراسةٍ كبيرة حين أكّدتْ لنا أنَّ زواجَ أختي بعمرَ سيكون زواجاً سمته الودُّ والرحمة.

أمي لا تعرف القراءةَ والكتابة، لكن فطرتها كانت نقيةً، لم تلوثْها أفكارُ التطرّفِ والعدوانية، فلم تبالِ بكيفية ذراعي عمر حال صلاته، أكان يسبلهما أو يكتّفهما.. كان يكفيها أنه يصلّي، وهو متوجّهاً إلى نفسِ القبلةِ التي نتوجّه نحن إليها عند صلاتنا...

هناك من يولدون بفطرةٍ سليمة، ثم يدلقون على بياضها المشعّ نجسَ المياهِ الآسنة من تعصّبٍ غير مبرر. دوماً تنمو يرقاتُ البعوضِ والديدانِ حين يكون الماءُ راكداً في البرك

والمستنقعات.. من المثيرِ للدهشةِ أنهم يصرّون على إطفاء ظمأهم بالشربِ من المستنقعات، وكأنَّ ما فيها من عفنٍ رانَ على قلوبهم، فلم يعد بمقدورهم رؤيةَ الماء الزلال.

# (23)

لم يكن حالي يختلف كثيراً عن حال أمي، فقد كنا نتناوب أنا وهي القلقُ على مستقبلِ أخوي اليتيمين، وحين أكملَ أخي دراسته وتخرّج من ثانويةِ الصناعة، وأصبحتْ لديه خبرةٌ جيدةٌ في عملِ الكهربائيات للأبنية؛ مدَّ له زوجُ أختي يدَ العونِ، وعرضَ عليهِ العملَ سويةً مع المقاولِ البدين عبد السلام في أعمالِ تشييدِ الدورِ والمحالِ التجارية، كفريقِ عملٍ واحد، فيأخذ أخي بعملِ خريطةِ الكهرباء للأبنيةِ المشيّدةِ، ويقوم زوجُ أختي بصبغِ الجدران والأبواب.

عرضُ العملِ هذا كان فرصةً غير متاحة للجميع، فحين تجدُ عملاً في بلد خنقه الحصار، وجفّتْفيه أمعاءُ الناسِ من الجوعِ لن يرفضها متعالياً.. أيّاً كان نوعها.

ولا أدري كيف أصبحا أخي وزوجُ أختي مثل توأمٍ متماثل. ربما هي ذائقتهما المشتركة، أو عملهما محاذيان لبعضهما طيلةَ النهار، أو روحُ الدعابةِ والنكتةِ التي تضجُّ بها روحيهما.

أو ربما هي تلك السمراءُ واسعةُ العينين، شقيقةُ عمر التي طيّرت لبَّأخي وحولتْه إلى مجنونِ ليلى.. ترقدُ الهالاتُ

السوداءُ تحت عينيه، ويشحبُ وجهه كلمّا مرّتْ سيرتها على لسان أمي.

كان ارتباكه يفضحُ هيامُه بها، وحين رمقته أمي بنظرتها الثاقبةِ مثل نظرةِ خبيرٍ محترفٍ لكشفِ الجرائم، وفاجأته بسؤالها عن اهتمامه وسرِّ خجله وصمته وارتباكه حين تزور ليلى منزلنا، وهل هو واقعٌ في حبها؛ كانتِ ابتسامته العريضةُ تكفي لتحملَ أمي نفسها وتلفُّ حولها عباءتها السوداء التي تغلق عليها خزانتها ولا تخرجها للنور إلا في الأعياد والمناسبات السعيدة، أو الحزينة وتنتعل(شحاطتها) السوداء الجلدية، ذات الحلقة الفضية في وسطها، وتحلُّ ضيفةً عزيزةً على أمِّ عمر، زوج أختي، طالبةً منها يدَ ابنتها الجميلةِ ليلى لأخي مرفقةً طلبها بجملة:

(لن أشربَ قهوتكم، إلا بعد قبولكم طلبي)

تزوّجَ أخي من ليلى صاحبةِ العينين السوداوين الناعستين، وسكنَ في الطابقِ العلوي من بيتنا بعد أن أضافَ له حماماً صغيراً بجانبِ غرفةِ نومهِ وصمّمَ هو بنفسهِ الكهرباءَ وشدَّ مصابيحه وطلا عمر له الجدران والأبواب. فأصبحنا بعد زواجِ أخي وأختي مثل قبيلةٍ تسكنُ في حيٍّ واحد، نجتمعُ في يوم الجمعة في بيتنا في الطابقِ الأول، الذي أسكن فيه أنا وأمي وسلمى زوجتي وأولادي.

كان يحدث بعضُ الهمزِ واللمزِ بين أخي وزوجِ أختي عمر، حين يرى من يصلي مسبلَ اليدين والآخرَ مُكتِّفَ اليدين، أو حين يرى أحدهما يسجدُ على تربةٍ صغيرةٍ بحجمِ قطعةِ البسكويت، والآخرَ يلصقُ جبهته على سجّادةِ الصلاة.

ورغم أنَّ" ويلٌ لكلِّ همزةٍ لمزة "إلا أنَّ الاعتدادَ بالرأي كان مشكلةً كبرى، تثير الجدلَ أحيانا.

ولم تكن اجتماعاتنا يوم الجمعة على الغداء تخلو من بعض التقاذف بالكلمات بين أخي وعمر، إلا أنَّ ذلك لم يتعدَ حدودَ السخرية والجدل الأحمق بين شابين، يثير كل منهما الآخر حتى يدفعه للغضب ثم يختتما جدالهما بنوبةٍ من الضحك، فيبدو وجهُ أخي المحتقنِ، كأنه حبةُ طماطم في أواخر موسمها، أما عمر بحاجبيه الكثيفين، واللذين زاد التقطيب من بشاعةِ منظرهما، يبدو مثل صقرٍ عجوزٍ حانقٍ مغتاظ.

# (24)

كانت أمي تشاركنا غدائها الأخير في جمعتها الأخيرة، حين قرَّرَ ملكُ الموتِ النظرَ في وجهها، وأمرَ روحَها الطيبةَ بتركِ الجسدِ الترابي المتعب والتحرر منه نحو حياة أخرى نجهلها.

حينها كانت أمي تجلس بيننا متربعةً على البلاطِ البارد، في الجمعةِ الثالثة، من شهر تموز، تمسكُ بيدها كوبَ الشاي الساخن، وتنصتُ لحد يِثأخي الطويل، حول رجلٍ كان قد صادفه في أحدِ المباني التي يعمل فيها لمدِّ الأسلاك الكهربائية على الجدران.

قال أخي: إنَّ الرجلَ كان أحد العائدين من الأسر، فقد أخذه الجنودُ الإيرانيّون أسيراً هو ومجموعةً كبيرةً من الرجال في إحدى المعارك التي اشتدّتْ أيام الحرب العراقية الإيرانية، وظلَّ أسيراً هناك سنواتٌ طويلة، إلى أن عاد بعد انتهاء الحرب بسنوات، ولم يكنِ الرجلُ قد تزوّجَ قبل أن يذهبَ للحرب، وكان اسمه ضمن عدادِ المفقودين، لذا كان من الأفضل لمصالحِ أخوتهِ الثلاث، الذين كانوا يديرون العملَ معه في محلٍّ لبيعِ الأقمشةِ في حي الكاظمية؛ أن تكون كلمةُ مفقود تعني متوفي.. ليكون

تكالبهم فيما بينهم واختلاف هم ذريعةً لبيعِ المحل الكبير، وتصفية الحسابات كلها. وحين عادَ الرجلُ من الأسر الطويل لم يجد شيئاً ليعتاشَ منه.. ولا مال ليديرَ به تجارة جديدة، وقد أدارَ له أخوته ظهورَهم.. بعد أن كانت بيوتهم عامرة بسببه هو.

فأخوة يوسف لم تزلْ قصته تتكرر.. ولطالما كان الذئبُ مظلوماً، وبريئاً من دم يوسف.

قد عاد الرجلُ من أسرهِ الطويل في حال لا يحسد عليه، فهو قليلُ الكلامِ، لا يكاد ينطق بجملةٍ حتى يقطعها راكناً إلى صمتهِ مرة أخرى، منعزلاً، منغلقاً على عالمه الخاص، وكأنه ما زال في سجنه الذي عزلوه فيه، هو ورفاقه بعيداً عن العالم الخارجي، لا راديو، لا تلفزيون، لا صحف.. وكانوا يكثرون من جلبَ الكتبِ الدينيةِ لهم، حتى أقاموا مكتبةً خاصة بها داخل المعسكر.

يقول هذا الرجلُ الذي عاد من أسرهِ - وكأنه عادَ من الموتِ - أنهم كانوا يعاملوننا في الأسر على أننا كفّارٌ، أو ضالّون، أو علمانيون، أو أتباع آديولوجياتِ النظام الكافر، حتى أنّا كنا نصوم ونصلي مثلهم.

لم يكن أمام الرجلِ بعد عودته وقد استحالَ حالُهُ ومالُهُ إلى إرثٍ تفرّقَ بين الأخوةِ؛ إلا أن يحملَ نفسَهُ ليعملَ في طلاءِ الجدرانِ مع عمر، الذي لم يبخلْ عليه بالتوسّط لدى أبي سلام المقاول ليوافق على تشغيله معه.

كانت أمي تستمعُ لقصةِ الرجل وتُحوقل ضاربةً كفّاً بكفٍّ على ما آل إليه حالُ الرجلِ المسكين، فانتبهت إليها وقد شحب لونها، ووضعتْ يدها فجأةً على صدرها، وهمستْ بصوتٍ ضعيف:

- ولدي حسين، أشعر بضيقٍ في صدري.. وكأنَّ ثقلاً كبيراً يجثم فوقي..

قفزتُ من مكاني، وقرْفصْتُ أمامها أمسح وجهها بماءٍ بارد، لكنها سرعان ما سقطتْ على جانبها الأيمن، مغمضةُ العينين، وقد توقفَ صدرها عن العلو والهبوط معلناً توقفَ تنفسِها.. صرختُ بها أمي.. أمي... بماذا تشعرين.. هل أذهب بك إلى المستشفى؟!!

كان الجميعُ قد تحلّقَ حولي، وأنا أحتضنُ جسدَ أمي، واضعاً رأسي على صدرها.. مرةً أحاول الاستماعَ لدقاتِ قلبها، وأتحس بسبابتي رسغها مرة أخرى، باحثاً عن أيِّ أثرٍ للنبض، لكنها كانت قد غادرتنا إلى غير رجعة.

بعد وفاةِ أمي أصبحَ البيتُ معتماً، كمن أطفأ سراجَهُ الوحيد، وراح يغطُّ في ظلمةٍ موحشة.

كنتُ أمرُّ على خزانتها الخشبيةِ المصنوعةِ من خشبِ الخيزران، والمنقوشةِ بيدِ نجارٍ ماهر، يحسنُّ حفرَ الأخاديدِ والمرتفعاتِ على ألواحِ الخشب، حتى تبدو الزهرةُ التي حفرَها بأوراقها الكبيرة، والفراشةُ الحائمة حولها كأنها روضةٌ نبتتْ فوق لوحِ الخشبِ دون أن تمنَّ عليها الشمس بالضياء.

كنتُ أقضي ساعاتِ حزني في غرفةِ نومِ أمي، أفتحُ بابَ خزانتها، وأبحثُ عن عباءتها السوداء المعطّرة برائحة المسك، تلك الرائحةُ التي تعبقُ من طيّاتِ ثيابِ العجائز الطيبات في الجنوب، حيث حرارةُ الشمسِ قد لفحتْ وجوههنَّ الودودة، وملأتْ قلوبهنَّ بعاطفةٍ لو وزَّعتها على الكوكبِ بأسرهِ ما كانت لتنفد.

أحتضنُ عباءتها وثيابها، وأشمّها طويلاً، فتعود بي رائحةُ أمي إلى دفءِ ساعاتٍ مضتْ، حين كنتُ أقتربُ منها لأقبّلَ رأسها ويديها.

عطرُ عباءةِ أمي، وخزانتها الخشبية، وغرفةُ نومها الصغيرة التي تركتها كما هي والتي لم أغيّرْ أيَّ شيءٍ فيها؛ كان

يخففُ عليَّ عذابُ الفراق. لكن عذابي لفراقِ تلك التي غابتْ عني، ولم تترك لي أثراً منها لم أجد حلَّاً له.. ولا بلسمٌ يداويه، سوى علقم الصبر.

فحتى صورتها الوحيدة التي كنتُ أحتفظُ بها في جيبِ بذلتي العسكرية أيام الحرب العراقية الإيرانية، فقدتها في رحلتي الدهماء بين المستشفى والزنزانة.

لكن عينيها محفورتان في مخيلتي، وحبتا الكرزِ في شفتيها لم تذبلا في قلبي رغم الغياب.

وكثيرا ما كان يشتدُّ بي الشوقُ لخضرةِ عينيها ويجافي النوم جفني، فأقضي ساعاتِ الليلِ مع أقداحِ الشاي والسجائر، وأنا أدندن بصوتٍ خفيض تشوبه الحسرة:

من تزعل.. توحشني الدنيا واتخيل غيرت ظنونك
ومن ترضى.. يظل شوك البيه يذوبني بنظرات عيونك
بس حبك قدري المكتوب.. تدري شكد حمّلني ذنوب...

*******

قلبي يئنُّ يا ندى.. يئن...
وذاكرتي أرهقها الغياب..
ومنفضةُ سجائري تستغيثُ متّخمة..
لا الصبرُينفعني.. ولا النسيانُ يواسيني...
مذاقُ المرارةِ في فمي..

**والسكرُ في فناجيني..**
**ألا يا عشبيةَ العينين..**
**هل من موتٍ رحيمٍ يوافيني؟**

# (25)

# مارينززززز

الوقت ربيعاً.. شمسٌ دافئةٌ تشقُّ اضطرابَ الغيوم، ورجالٌ من كوكبٍ آخرَ يحتلّون العاصمة.
صباحٌ جديد، وفزعٌ جديد.. خلاصٌ مدفوعُ الثمنِ سلفاً، فشعبٌ محكومٌ بالحديدِ والنارِ؛ لن يحررَ نفسَهُ بنفسِهِ...
وما دمتَ لا تقوى على تحريرِ نفسك، فاستعدْ لدفعِ ثمنِ الحريةِ للغريبِ، الذي مثّلَ دورَ المنقذ والمخلص، وابتلعتَ أنت الطعمَ دون أن تعي حقيقةَ عبوديتك الجديدة.
في ليلةٍ واحدةٍ انهارَ نظامُ حكمِا لثلاثين سنة، اختفى الزعيمُ دون أن يجدَ أحدٌ له أثراً، وذاب الرفاقُ مثلَ حبّاتِ رملٍ في نهر..
الجيشُ الأمريكي، وقوّاتُ التحالفِ تتجول في كلِّ مكان، رجالٌ ببذل اتِكاكية، ونظار اتِسو داء غريبةِ الشكلِ، تعتلي أنوفَهم الحمراء، وجوهٌ شمعية، أجسادٌ رشيقة، وبطونٌ ضامرة، تحت صدورٍ عريضة، وعضلاتٍ مفتولة.. طالما كنا نشاهدهم في الأفلامِ ونتعجّبُ من طولهم الفارع، ولونِ البحر في تلك العيون، التي أخفوها بنظاراتٍ كبيرةٍ،

ورؤوسٌ تقبعُ عليها خوذٌ مرقّطةٌ، تجعلهم يبدون مثلَ كائنٍ فضائي حطَّ تواً على ترابِ العراق الممزوجِ بالبارود.
حملاتُ مداهماتٍ واسعةٍ، تجتاحُ الأحياءَ السكنيةَ، بحثا عن إرهابيين ومتطرفين...
دباباتٌ و أرتالٌ محمّلةٌ برجالٍ ذواتِ وجوهٍ شمعيةٍ، يصوّبون رشاشاتهم بخوفٍ وفزعٍ إلى المارّة، يشقّون السيرَ وهم ينظرون إلى الأمام، وأسلحتهم مصوّبةٌ نحو السياراتِ وقد يضربون السياراتِ بقناني الماءِ بعنجهيّةٍ أمريكية لا يمكن أن تُخطئ، ويواصلون شتائمهم بحقِّ كلِّ من يرونه في الشارع، وقد كتبوا على مؤخرات همراتهم "أذا اقتربتَ بمدى 100 م ستكون عرضةً للقتل" وعبارةٌ أخرى كُتبتْ بخطٍّ فسفوري يشعُّ في العتمة "منطقة القتل أقل من 100م" القتل.. كلمةٌ صار تداولها أكثرَ من تحيةِ الصباح والمساء..
عبواتٌ مزروعةٌ في الطرقات، شوارعٌ خاليةٌ من هويتها، مدنٌ بأكملها قُلِبتْ رأساً على عقب، جثثٌ تلقى في القمامةِ كل صباح، عصاباتُ خطفٍ وقتل، ملثَّمون مجهولو الهويةِ والانتماء، جثثٌ تلقى في دجلةَ جعلتْه يتقيَّأ مياهه..

يبدو أنَّ هناك موضةً جديدة، تسري مثل الحمّى في بلدٍ صار على جرف الانهيار، حتى شاكر والد زوجتي صار يجاري موضةَ العصر الرابحة، عندما أتى لزيارتنا قبل أسبوع، فاجأتني هيأته الجديدة، فقد خلعَ البذلةَ العسكرية التي يلبسها الرفاق، واستبدلها بجبّةٍ وعباءة، وغطّى صلعته اللامعة بكوفيةٍ بيضاء، والتصقتْ سبحةٌ من الكهرب الأصفر في يده اليمنى، فلم تكد تفارقه، وهي تلتفُّ حول مركزها مثل أفعى.. كانت يده اليمنى تقّلبُ حبّاتِ الكهرب دون توقّفٍ، ويتمتمُ بكلماتِ شكرٍ واستغفار، كما يفعل الزاهدون، ولاحظتُ خاتماً بفصٍّ أبيضِ اللون في بنصرهِ الأيمن، يومها ضحكتُ حتى أصابني سعالٌ شديد، وغضبَ مني شاكر، ناعتاً إياي بالملحد، فقط لأنَّني سألته عن سببِ تديّنه المفاجئ.

كان مثلَ الحرباءِ يغيّر لونَه حسبَ المحيط ..

أذكرُ أياماً كان الرفيقُ شاكر يافعاً أو أقلَّ هرماً مما هو عليه اليوم، كان يتبختزُ بمشيتِه وسط محلتنا، وأرنبةُ أنفهِ ترتفع بزهوٍ حتى تكاد تلامس السماء، كان يردُّ التحيةَ بإيماءةٍ من رأسه الأصلع، إيماءةٍ متكاسلةٍ متثاقلةٍ على هؤلاء الذين يسوقهم سوءُ الحظِّ، فيلتقون به على قارعة الطريق ذهاباً أو إياباً.. وبما أنَّ الواجبَ الوطني يحتِّمُ على كلِّ مواطنٍ

شـريفٍ أن يحتـرمَ الرفـاقَ؛ فكـان مـن الجـرمِ علـى تلكـم المسـاكين أن يشـيحوا بـوجههم عنه، أو يتمـاهلوا فـي تحيتـهِ وتبجيلـهِ، وعلـيهم أن يبتلعـوا تلـك الإيمـاءةَ البـاردةَ التـي دفعتهـا صـلعتُهُ اللامعـةُ المـوقرة إلـيهم، فهـي صـلعةُ رفيـقٍ حزبـي كبيـرٍ ناضـل أيـامَ النضـال السـلبي والإيجـابي، والتركـوازي، والمـائي، والبرمائي، إلـخ... مـن المسـمياتِ الرفاقيـةِ الثوريـة. كـان الرفيـق شـاكر يخـدمُ الوطنَوترابَـه، ويرهـقُ جسـده الجـاف مثـل سـمكةِ الـزوري فـي اجتماعـاتٍ حزبيـةٍ مكثّفـة لتوعيـةِ الشـبابِ لمـا تحملـه الثـورة مـن فكـرٍ وهويـة، والخـائنُ هـو مـن يـأبى الـتلاحمَ مـع المناضـلين والنضـال، ثـم إنَّ شـاكر يحمـل علـى كاهلِـه مسـؤوليةً ثقيلـةَ الـوزن، ذوتْ تحـت ثقلِهـا عظامُـهُ وتسـطَّحتْ عضـلاتُ ذراعيه وساقيه وردفيه، مع أني اذكرُ أنَّ ردفيه يابسـان منذ الأزل، لا عضـلَ ولا شـحمَ فيهمـا، يشـبهان مـؤخرةَ قـردٍ مصابٍ بمجاعةٍ مزمنة، وحين أرى مؤخرةَ الرفيقِ شاكر وهو يسـرعُ الخطى أمـامي فـي الطريـق أحيانـاً؛ لا تنفـكُّ مـؤخرةُ القرد الذاوي ترتسـم قبالتي، ثـم بكثيرٍ من القرفِ والغثيان يـذهب خيـالي ليقـارنَ بـين المـؤخرتين، فتبـدو لـي مـؤخرةُ القـردِ أجمـلُ مـن مـؤخرةِ الرفيـق شـاكر؛ كونهـا غيـر مغطـاةٍ بالشعر.

كانتِ المسؤوليةُ شديدةَ الوطأةِ على والدِ زوجتي المناضل أيامَ نضالهِ في صفوفِ الحزب، فكان يجتهدُ في صنعِ بيئةٍ ملائمةٍ للقادةِ الكبار في الحزب والثورة، ليتمكنوا من متابعةِ نضالهم وتضحياتهم الجمَّة في سبيلِ الوطنِ وأبناءِ الوطن الكسالى، ولأنَّ كلَّ رجلٍ مناضلٍ يكون مثقلاً بالهموم؛ لذا يتحتمُ على الشعبِ أن يسعى في مؤاساتهِ وتوفيرِ كلِّ وسائلِ الراحة له، فكان الرفيقُ شاكر على أهبَّةِ الاستعدادِ لخدمةِ القادةِ المناضلين، الذين هدّتْ خدمةُ الوطن أجسامَهم، حتى صارتْ تغلي الدماءُ في عروقهم ليلاً، وتحتقنُ أعضائهم التناسلية بمائها الحبيس، وصار من الواجبِ أن يعبّرَ الرفيقُ شاكر ومن حذا حذوه عن حبّهِ لخدمةِ وطنِه، فكان يأتي بالراقصاتِ والغجرياتِ، وصغيراتِ العاهرات، ممن لم يُستهلكْ جمالُهن ولحمُهنَّ الأبيض بعد، ثم يشرفُ بنفسهِ على جلساتِ النضال تلك، ولياليها الحمراء الدامية بكلِّ ما يمليه عليه الوطن من إخلاص من المساء وحتى انبلاج الفجر الصادق، وبعد أن يتبيَّنَ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجر بوقتٍ طويل، وحين يطمئنُّ على القادةِ والمناضلين، بعد أن أعياهم الهزُّ الرقصُ وقد انطرحوا مخمورين على الأسرّة في أحضانِ العاهرات، اللواتي كنَّأيضاً يخدمنَ الوطنَ وأبناءَ

الوطن حين يفتحنَ أفخاذهنَّ ويمكنَّ القادةَ العظامَ من أن يقذفوا في فروجِهنَّ ماءهم العظيم؛ ينسحب عندها الرفيق شاكر، عائداً إلى بيتهِ يعلو الزهوُ صلعتَهُ، ويتلألأ عرقُ الكبرياء على جبهتهِ الضيقة، فقد أمضى ليله ساهراً، يحرس الوطن ويتفانى حدَّ الموتِ في تبجيلِ الثورة والحزب، الذي لو أخبره أحد يوما أنَّ الشمسَ ستشرقُ من مغربها لصدَّقه، على أن يصدقَ أنَّ تلك الثورةَ وقيادةَ الثورةِ ستنهارُ بضربةٍ زلزاليةٍ واحدة لا ارتدادَ فيها، عكس قوانين الضرباتِ الزلزاليةِ المتعارفِ عليها، وستأخذ معها - في انهيارها-كلَّ ما كان يتمتعُ به الرفيقُ شاكر من وجاهةٍ وسلطة، ثم تجبره الليالي السوداءُ أن يختبئ مثلَ جرذٍ مذعورٍ في منزلِ أحدِ أقربائه غربَ بغداد.. منزلٌ من ثلاثةِ طوابق، وسطَ مزرعةٍ وارفةٍ، تزدحم بالنخيلِ وأشجارِ البرتقال والليمونِ والرمان، فمهما حصلَ من هرجٍ ومرج، وحملاتِ مداهماتٍ واعتقالاتٍ من قوات التحالفِ وأفرادِ المقاومةِ في بغداد؛ فإنَّ ما قد يحصلُ في مزرعةٍ نائيةٍ أقلُّ بكثير، أو يكاد يكون لا يذكر، لذا كانتِ المزرعةُ بأسوارها، وأجمتها الخضراء، ونخلاتها الباسقة، مخبئاً آمناً لوالد زوجتي شاكر، الذي وقع عنهه الآن لقب الرفيق.. وصار نكرةً مهددةً بالسحقِ تحتَ الأحذيةِ الأمريكية، أو العراقية.

ظلَّ في عزلتهِ الريفيةِ هناك يتأملُ ويترقَّبُ، ويقرأ الأحداثَ عن بعد، ويحلّلها تحليلاً منطقياً يتيحُ له أن يمسكَ أولَ خيطٍ من خيوطِ البكرةِ المتشابكةِ، يمكّنُهُ من العودةِ إلى بغدادَ؛ لمواصلةِ نضالِهِ، وخدمتهِ للوطن.. ولكن حسبما تقتضيه الظروفُ المؤاتية، والحالةُ الجوية، ودرجةُ الحرارة والرطوبة، حينها سيختار الزيَّ المناسبَ للدورِ المناسبِ، ومن ثم إلى ساحةِ النضالِ بطلٌ قياديٌّ جديد، بتاريخٍ نضاليٍّ جديد، تدمع له الأحداقُ، وتسيل له الأنوفُ، ويعظُّ له الناسُ الأصابعَ على شدَّتِهِ وطولهِ وعتمةِ لياليه.

في الريفِ، وفي وسطِ المزرعةِ المترامیةِ الفيحاء، كان الرفيقُ شاكرُ يأخذُ مجلسَهُ مع قريبهِ، صاحبِ المزرعة، تحت ظلالِ أغصانِ أشجارِ الحمضيّات، وشجرةِ التوتِ العملاقة بأغصانها المتشابكة، حيث تجاهدُ أشعةَ الشمس، كي تشقَّ طريقها بين الأوراق والأغصان، وتسقطُ بخيوطٍ حريريةٍ دافئةٍ على العشب الذي يفرشُ الأرضَ تحتها، وتهبَ نسماتٌ رقيقةٌ تداعبُأ وراقَ الأشجارِ الخضراء، فيعبق عطرُ أزهارِ القرنفل والقدّاح، مختلطاً برائحةِ الهواءِ والعشبِ الرطب، كانتِ المقاعدُ البلاستيكية تصطفُّ ويُفرشُ الحصيرُ على العشبِ، حيث يحتشد عليهما الأصدقاءُ، والشيوخُ، والوجهاءُ في مزرعةِ حسّان قريب

شاكر، حسان رجلٌذو وجاهةٍ وغنى، وعلاقاتٍ متداخلةٍ مخيفة، مثل أذرعِ الأخطبوط، وجههُ القرمزي الممتلئ ، ولحيته البيضاء كالقطنِ النظيفِ المنفوش، وتلك الطاقية البيضاء التي يضعها فوق رأسه المدوّر؛ يعطيك انطباع بالراحة والاسترخاء المزيفين حين تنظر إليه لأول مرة ، لكنك إن أمعنت النظر جيدا في وسط عينيه الضيقتين، اللتين احمرَّ بياضهما دونما مرضٍ، أو تحسس، ستجد أنَّ الرعبَ والشكَّ يزحفُ نحو روحك، فتلكما العينان لا تعرفان الرحمة، ولا يمتّان لعيونِ بني البشر بصلةِ قرابة، إلا في شكلهما الظاهري، لكن ما ينبعث منهما من خبثٍ ومكر؛ تجعلانهما عينين شيطانيتين - إذا صح التعبير- رغم أنَّ لا أحداً منا أبصرَ الشيطان، أو عينيه يوما، لكننا مجازاً نشعر بخسّةِ النظرةِ الشيطانيةِ إن نظرنا في عينين مثل عيني حسان.

# (26)

في جلساتِ السمرِ تلك، التي يختلط فيها دخانُ السجائر بعطرِ أزهارِ القرنفل، وسط المزرعةِ وطقطقةِ (استكانات) الشاي المتلاحقة، كانت الأحاديثُ تزدحمُ حول النهضةِ الجديدة للبلد، وعنِ المناضلين الجدد، الذين وصلوا تواً إلى أرض الوطنِ لخدمةِ ترابهِ المقدّس، وأحياناً كان حسان يستقبل في مزرعتهِ ضيفاً أو ضيفين، وربما ثلاثةً من المناضلين الجدد، رفيعي المستوى، فتتلاحمُ الأيادي، وتسخنُ الضمائرَ، وتشحذ الهمم من أجلِ إيجادِ حلولٍ سريعةٍ تنقذ البلدَ من سقوطهِ في الهاوية، حصل الرفيق شاكر على ثقةِ أحدِ المناضلين في تلك الموجةِ الهوجاءِ الجديدة، فأعجبتْ ذلك المناضل، صفةُ الورعِ والتقوى التي بدتْ على هيأةِ شاكر بعد الاحتلال، وهو متسربلٌ بالرداءِ الأبيض الناصع، والعباءةِ البنّية المعطّرة بالمسك، التي وضعها بهيبة على كتفيه العظميتين اليابستين، وتلك الدائرةُ الصغيرةُ السوداءُ التي حطَّتْ رحالها وسط جبهتهِ تشي بطولِ سجودهِ، والتصاقِ جبهتهِ بالأرضِ وبليالي تهجّدهِ وعبادته.

كانت دموعُ زوجتي سلمى ترهقني، وبكاؤها على والدها، يقلب البيتَ إلى مقبرةٍ يعلوها العويلُ على الموتى، وفراقِ الأحبة، لذا كنتُ أحملُ نفسي وزوجتي مكرهاً، رغم سوءِ الوضع الأمني والاشتباكات هنا وهناك، وأذهب بها حيث المزرعة البعيدة، فنمكثُ هناك ليلةً أو ليلتين، تقضيها سلمى في الحديث مع أبيها وأقاربها، وأقضيها أنا في التسكّع بين الحقولِ والمزارعِ وأشجارِ التوت، كان يدعوني والدُ زوجتي للجلوسِ معه حين يستقبل الحاج حسان رجالاً رفيعي المستوى ومجهولي التاريخ النضالي، رجالاً ببذلاتٍ لامعةٍ، وذقونٍ حليقة، ورجالاً آخرين بذقونٍ طويلةٍ ومسبحاتٍ أطول، وآخرين يرتدون لباسَ الشيوخِ وعباءاتهم مع الكوفية البيضاء والعقال، كان المتوافدون على مزرعةِ الحاج حسان من كلِّ نوعٍ، وكلِّ زي، يبدون مختلفين في المظهر واللكنة، لكن هناك ما يجمعهم ولا ريب، كنتُ أستجيبُ لشاكر أحياناً، وأجلس لدقائقَ أحتسي الشاي، وأدخّن، وأستمع لما يقولون، وأستطيعُأن أجزمَأنَّ من يسمعُ لذلك الحديثِ؛ سيرى الجنائن المعلقة قد بُنيتْ من جديد في كل زقاق، وأنَّ فرجَ اللهِ لآتٍ على يد هؤلاء، لكن جرّبْ فقط أن تنظرَ في عمقِ عيونهم، وستفهم أنَّ الغرقَ هو الآتي، وليس الفرج، لذا كنتُ

أنسحبُ مسرعاً من تلك الجلساتِ الوطنية جداً، وأطلقُ ساقي للريحِ بين المزارع، مستنشقاً الهواءَ النقي الذي يحمل معه رائحةَ العشبِ الرطبِ، وخبزِ تنورِ الحطب، وحين ترتوي زوجتي سلمى من رؤيةِ أبيها؛ نعود إلى بغداد، حيث نقطع الطريق إليها بزمنٍ مضاعفٍ بسببِ الأرتال الأمريكية التي تُوقفُ السيرَ، وتقوم بعملياتِ تفتيشِ الركّاب، رجالاً ونساءً، من الرأسِ إلى القدم.

# (27)

كنتُ أعتقدُ أنَّ جميعَ الناسِ تمتدُّ أصولهم إلى (آدم) حسب النظريةِ الدينية، أو إلى أجدادهم القرود، أو أحدِ الكائنات أحادية الخلية، التي تطوّرتْ شيئاً، فشيئاً، حسب نظريةِ التطور ل "دارون" ولم أكنْ أعلم أنهم مقسّمون إلى أنواع، ولهم أصولٌ أخرى.

لكن ما حدث بعد احتلالِ بغداد، أو تحريرها، قُسِّمَ لنا الناسُ إلى فصائلٍ بشريةٍ جديدة.

شيعةٌ وسنةٌ على أنواعٍ متعددة، ثم فصائل الدين النصراني بأنواعها، والصابئة والإيزيديون، وكثيرٌ من المعتقداتِ الأخرى، التي يتحددُ من خلالها نوعُ الفصيلِ البشري.

ثم اصطفَّ الناسُ كلّاً حسب فصيلته، فأصبح لدينا خمس.. سبع.. أو ثماني عشرة فصيلة، بدل شعب واحد، ثم بدأتْ تلك الفصائلُ بالتناحر فيما بينها، فصار هلالُ العيدِ يظهر في أيامٍ عدة، وينقسمُ عيدُ الفطرِ والأضحى إلى عيدين أو ثلاثة، حسب الطوائف والمعتقدات.

ولم أكن قد تنبّأتُ مسبقاً بموسمِ التناحر هذا، لذا وقعتُ في الفخّ حين أسميتُ ابني البكر عليا.

لأنَّ القتلَا لآن أصبح حقاً مشروعاً بين الفصائل..

وكل ذلك القتلُ قد اكتسبَ الشرعيةَ بصرخةِ الله أكبر... قتلٌ مباحٌ ليس بالضرورةِ أن تمتلك دافعاً دينيا.. قد يكون الدافع الكره، الغيرة، السرقة، الانتقام للشرف، القتل للقتل فقط... لن يسألك أحدٌ لمَ قتلتَ؟ إنه جنونُ القتل، جثثٌ مكدّسة.. والمدافنُ لم تعد تتسع.

أذكر في ليلةٍ من الليالي، كنتُ عائداً من عملي، فأوقفتني إحدى نقاطِ التفتيش المنتشرة في مداخلِا لأحياءِ والأزقّة البغدادية. خمسةُ رجالٍ ملثّمون يحملون سلاحاً ويرتدون السواد،

ولم يكن بمقدوري التفريقَ، إن كانت نقطةُ التفتيشِ تلك وهميةً من متطرفين، أمنقطةٌ حقيقةٌ، أفرادها من الشرطة أو الجيش؟.

لكنني مجبرٌ على التوقّفِ وإطفاءِ محرّكِ السيارةِ والإجابةِ عن أسئلتهم. كان السلاحُ موجَّهاً إلى صدري، حين سألني أحدهم ما اسمك؟

في تلك اللحظةِ تحشرجَ الكلامُ في حنجرتي، واحترتُ بالإجابة.. فإن قلتُ أنَّ اسمي حسين، قد أُقتلُ على يدِ الفصيلة المخالفة، وإن قلتُ أن اسمي عمر، سأقتلُ على يدِ النوع الأول.

فالقتل هنا هو للقتل فقط، إن كنتُ علياً أو حسيناً.. وإن كنتُ عثمانَ أو عمر، وحتى إن كنتَ تُدعى جورج، أو زياد، أو حتى سرمد؛ يمكنهم قتلك ورميك على قارعة الطريق، لتأكلك الكلابُ دون أن تفهمَ سببَ قتلك.

ليلتها قبل أن أنطقَ باسمي، وأبرز لهم هويّتي، رددتُ الشهادة في سرّي، واستسلمتُ للموت، لكنِ الرجلُ الملثّمُ نظرَ في هويتي ثم رفع بصره، وأطال النظرَ في وجهي، بعدها أشار لي بحركةٍ من رأسهِ دون أن يتكلم، وأمرني بالتحرّكِ والذهابِ فورا.

أعتقد أنني نجوتُ من الموتِ تلك الليلة لانَّ الرجلَ لم يكن له مزاجٌ في القتلِ، أو ربما كان متّخماً حدَّ التقيؤ من جثثِ النهار التي تكدّستْ على قارعةِ الطريق.

# (28)

سكبتْ لي الشايَ الساخنَ، في الكوبِ الخزفي، الموضوعُ أمامي على طاولة المطبخ، ثم جلستْ قبالتي تنظر إليَّ كمن يريد أن يلقي بقنبلةٍ، أو رمانةٍ يدوية.
كان وجهها ذابلاً، وزرقةٌ باهتةٌ تحيطُ بعينيها الوديعتين، يبدو شكلها كمن قضى ليلته مُسهدا.
بادرتها أنا بالحديث، لأخففَ من وطأةِ الكآبة التي حلّت بيننا:
- ما بك سلمى؟ تبدين متعبة، هل أزعجتك كوابيسي المتكررة، وصراخي الذي يخترق سكون الليل؟ لا تنكري وتكلمي مباشرة، هل تحبّين أن أذهبَ للنومِ في غرفةِ أمي - رحمها الله - كي تستريحي في نومك؟

- وهل تعتقد يا حسين أنَّ ما يتعبني هو قلة النوم، أم هو خوفي عليك مما أنت فيه.
ألا يوجد حلٌّ لحالك يا حسين، فأنت لم ترَ نفسك كيف ترتعش مفزوعاً بين يدي كابوسك المتكرر، وسجّانك، وأنتَ تصرخُ باسمهِ في العتمة، حتى الأولاد باتوا يسألونني

عن كوابيسك تلك! وقد صارحني ابنك علي برغبتهِ الملحّة في علاجك عند طبيب نفسي.. فما رأيك يا أبا علي ؟
(وكأنَّ سلمى صفعتني بيد ابني علي )
- سلمى أرجوك، انسي أمري، أنت وعلي، سأحلُّ المشكلةَ هذه الليلة، فغرفةُ نومِ والدتي تنتظر من يدفئ فراشها البارد.
_كلا ... لن أوافق على أن تترك سريرك ... وقد أخبرتك أن قلبي يضيق كلما شاهدتك على هذه الحال .. أما كوابيسك تلك فقد أصبحت موسيقاي المفضلة التي أستمع لها كل ليلة
- حسنا إذاً.. سأتكلم مع وحشِ الزنزانةِ أن يعزفَ لنا أغنيةً لأمِّ كلثوم هذه الليلة حين يزورني في كابوسي.. قولي سيدتي ماذا تريدين أن تسمعي لستِّ الكل؟
**********

مسكينة سلمى، فقد كانت تحتملُ معي عذابي، وتتقاسمه مثلَ رغيفِ الخبز، كانتْ تنظرُ إليَّ وتبتسم، وعيناها تنطقُ بخوفٍ وقلقٍ لم تقوَ على مداراته. هناك حاجزٌ غير مرئي، يقف شامخاً بيني وبين زوجتي، حاجزٌ بوجهين، مثل جدارٍ بوجهين ملونين بألوانٍ متنافرة، في صفحةِ الجدار قبالتي، كانتْ عينان خضراوان واسعتان مرسومتان تحدقان بي طيلة

الوقت، تراقباني، تخلعان قلبي، تقفان بين التحام قلبي، وقلب زوجتي، أما واجهةُ الجدارِ التي قبالة سلمى، فقد كانت مطليةً باللونِ الرمادي، أو ربما لا لونَ فيها، حاجزٌ غامضٌ- حسبما تراه سلمى - دون أن تنطقَ، أو تشكو منه يوما، لكن عيناها كانت تشي بها، تنظر لي بحيرة، وكأنها تعاتبني على سرِّ الجدار الذي تجهله، ولا تجرؤ على البوح به، أو سؤالي عنه، كان فمُها مُطبقاً بشدةٍ وبمرارة، على خيبةٍ لا تريدُ الخوضَ فيها، لم أخبرْ سلمى يوماً عن جرحي الغائر، وعن العينين الخضراوين اللتان لا تفارقان قلبي وروحي، حتى صارتا جداراً صلداً لا تطاله الندوب، ولذا كنا نكتمُ صراخنا الداخلي حين نجلسُ منفردين أنا وزوجتي، لا أحدَ مِنَّا يريدُ تحطيمَ الجدارَ بمعاولِ الأسئلة، لا أحدَ مِنَّا كان يمتلك الشجاعةَ للنزولِ إلى منجمٍ مظلمٍ باردٍ مليءٍ بالأفاعي، مغلقٌ منذ عقود طويلة، أو ربما منذ أن التحمَتْ أجسامُنا كزوجين.

# (29)

عاد الحاج شاكر الزاهد إلى بغداد، بعد أن صار محصَّنًا، ولــه صــوانٌ وصــولجان، وحاشــيةٌ مدججــةٌ بالســلاح، والفرسان تشع بالهيبة والإيمان.

انتقلَ من حيّنا الشعبي، وسكن قصراً في أحدِ أحياءِ بغداد الراقية على ضفافِ دجلة، يتعبّدُ فيه، ويخدمُ فيه الوطنَ من جديد، ووضعَ رجُلين أمام قصرهِ يسهران على حراسته ليلَ نهار، وتقفُ في باحةِ قصرهِ الطويلةِ الواسعة، سيارتان مظلّلتان مخيفتا الشكل. كانتا تحت تصرفهِ، هما وسائقاها.

وحتى أنا - زوج ابنته - لم يكن بمقدوري الدخولَ عليه دون أن أحجزَ موعداً عبر الهاتف مع مديرِ أعمالهِ الحاج عبد الصبور، وكما كان يخبرني عبد الصبور: أنَّ الحاج شاكر، منهمكاً طيلةَ الوقتِ في اجتماعاتِ وورشِ عملٍ لبناءِ وترميمِ الخرابِ الذي خلفه الاحتلال بعد عام 2003 .

فكان قصرُه المنيفُ الذي يعسكر أمام بوابته الحراس ببنادقهم خوفاً على سلامةِ المناضل شاكر، يعجُّ بالضيوفِ كلَّ مساء، أناسٌ من أصحابِ المقامِ الرفيعِ، والكروشِ المتدليةِ فوق البنطلونات المكوية ببراعة، والذقونِ المحددةِ

بأنامـلٍ حـلاقٍ مبـدعٍ تمكّـن مـن تحديـدها دون المسـاسِ بمظهرها المهيب.

كـان شـاكر يناضـلُ ويجاهـدُ ويخـدمُ الفقـراءَ بعقـدِ صـفقات، يكـون هـو الوسـيط فيهـا، صـفقاتٌ لبنـاءِ وحـداتٍ سـكنية، ومدارس، ومستشفياتٍ يلجأ إليها المتضررون من الحرائق والقـذائف، المشـوهون والمرضـى بعلـلٍ تفطّـرُ القلـب، صـفقاتٌ لاسـتيرادِ أدويـةٍ لمـن تعطّـلَ عنـده البنكريـاس، أو الكُليـة، أو الجهـازُ التناسـلي، وتـدلّى عنـده القضـيبُ مثـل خرقةٍ لمسحِ الأحذية، وهـذا عينه ما كان يؤلمُ قلبَ شاكر والد زوجتي، فلا بدَّ للمناضلين ولأبناءِ الشعبِ أن يكونوا منتصـبين تتـأجّجُ مـنهم الرغبـةُ وتطفـحُ مـن بنطلونـاتهم الرجولـة، كـي يتمكنـوا مـن النهـوضِ بـوطنٍ مترمّـلٍ منهـارٍ جاثٍ على ركبتيه، ينعى تاريخاً مخضرماً من الرجالِ في عصرِ الفرسان، ما بين النهرين، في أرض السواد.

كانـتْ عظـامُ النـاسِ قـد هُرسَـتْ تحـت القـذائفِ والـدبابات، والأورامُ السـرطانية هبّـتْ فـي وجهنـا مثـلَ وحـشٍ اسـتفاقَ فاتحاً فمه ليلتهمَ الأجسام الصغيرةَ والكبيرةَ على السواء، وحشٌ تغـذّى على اليورانيـوم المنضّـب، الـذي رُشـقَتْ بـه بغداد يوم حربِ الخليج الدامية.

أعتقدُ أن هذا الأصلعَ يجيدُ اتباعَ الموضة، وأظنُّ لو أنه عاشَ لسنواتٍ أخرى، في ظلِّ حكمٍ جديد، لكان أوّلَ من ارتدى لباسَ موضةِ الحزبِ الجديد، حتى لوكان لباسَ بحرٍ من قطعتين.

ولو اقتضى الأمرُ لحلقَ شعرَ ساقيه، ولمَّعَهما، ليكونَ بمظهرٍ شهي، وهو يرتدي لباسَ البحر ذاك.

كان شاكرُ يفتخرُ بحفظهِ لأسماءِ الله الحسنى التسعة والتسعين، وبصلاةِ الليلِ التي عرفها متأخراً، ويدَّعي أنه يواظبُ عليها كل ليلة. ويزدري من لا يقوم الليلَ ويتشدّقُ متفاخراً بعملِه ذاك، فتذكرتُ حينها، وأنا أستمعُ إلى حديثهِ هذا قصةَ الشيطان الذي خرجَ من الجنة بغضبٍ من الرب، ولعنةٌ دائمة تطارده، وكل ذلك لم يكن لقلةِ عبادته، فالشيطان كان يُسمّى "عزازيل" وهو من الجِنّ العابدين، الساجدين، الحامدين، المسبحين، لكن لعنةُ اللهِ طالته؛ لمعصيته لأمر الله، لغرورهِ وازدرائه لتنصيبِ غيره من غير جنسه، وشعورِه بالأفضليةِ والتميزِ عنهم.

كان الرجلُ بهل واناً ماكرا.. يفهم جيداً من أين تؤكل الكتف. ثم على أيّةِ حال، كان الرجلُ يخدمُ الوطنَ، حتى لو كانت نتائجُ ذلك النضال مخزونةً في البنوك السويسرية،

بأرقامٍ سريةٍ تؤمّنُ له ما يحتاج، إن قرّرَ يوماً أن يعتزلَ النضال، أو يعتزلَ الوطن.

********

عشرُ سنواتٍ مرّتْ على احتلالِ بغداد..

ونحن مثل ثيرانٍ هائجةٍ في سباقِ مصارعةِ الثيران. أصبحنا مقسّمين إلى ثلاثِ مجموعات: مجموعةٌ رداؤها بلا لون، شفافٌ تماماً، تظهر من خلاله عوراتهم، فهم لصوصٌ لا يشعرون بانتماءٍ للوطن على أيّةِ حال.

والثانية تتقاسمُ الكوابيس والأحلامَ الوردية، ليلها الطويل الذي تمتدُّ أذيالُهُ لتغلّفَ ضوءَ النهار الخجل، فيبدو الصباحُ رمادياً، يصلح لكوابيسِ الليلِ الفاردِ أجنحته مثل كائنٍ عملاق، بجناحين ثقيلتين من الرصاص.

لا صباحَ في وطنٍ تطفح فيه البالوعات مع أول هطولٍ لغيمات سمائه الحبلى بماء الموت الأسود.

فكيف لشفاهِ الوردِ أن تبتسمَ، وهي تحملُ نعشَ الأحلامَ، وتصلّي عليه صلاةً بلا سجود، عند كل فجر وزوال؟

واليتمُ يتقاطرُ على الوجناتِ الشاحبةِ، مُزيحاً بكلِّ وقاحةٍ، قطراتِ الندى.

أما ما تبقى منا.. فهم هؤلاء الهائمون على وجوهِهم يلتحفون السماءَ، ويفترشون ترابَ

الشوارع. المعدمون والأيتام والأرامل.. تغصُّ بهم الأزقةُ والساحات، يتقافزون بين إشارات المرورِ، يستجدون ويلعنون اليوم الذي ولدوا فيه. وبعضٌ منهم ممن جفَّ جلدُه وشاخَ عظمُهُ، ووصل إلى أرذلِ العمرِ ولم يعد يقوى على التنقّلِ في الشوارع، راح يفترشُ الأرضَ، ممدداً على فراشٍ قذرٍ، ملتحفاً بما تبقى من غطائه الممزق، وهو يرصدُ المارة بعينين فيهما ذلُّ الحاجة، وازدراءُ الذات. وكل ما يحصلُ عليه هو ثلاثُ وجباتٍ يومية من أصحابِ الدكاكين القريبةِ من بقعتهِ التي يفترشها، أو من بعضِ المارّة طيّبي القلبَ، كرماءَ اليد.

سنوات صيفها يزدادُ سعيراً وجفافاً، وشتاؤها تغرقنا أمطاره، فنعومُ في الشوارعِ مثل سفينةِ نوح في الطوفان.

فوضى عارمة، والسيادةُ لقانونِ العشائر، والعصابات المسلحة. تحوّلت المدنُ إلى قرى، والقرى إلى أراضٍ جرداء مخيفة. حتى الذائقةُ العامةُ للناسِ تدنَّتْ، وصار الهابطُ والتافه هو السائد.

لكن من الغرائبِ والمفارقاتِ أنَّ الملاهي الليلة، ازدهرتْ وتكاثرتْ أكثر من ذي قبل، وعاهراتها، كلُّ واحدةٍ منهنّ لها سلطة قائمةٌ بذاتها، فلو جرَّبتَ أن تتشاجرَ مع إحداهنَّ–مثلا - ستجدها قد رفعتْ هاتفها، وتكلَّمتْ مع

فلان، وبلمحِ البصرِ؛ سترى عدداً من القواتِ، بمركباتٍ زجاجها معتم، وسرعتها مخيفة، هبطتْ عليك من السماء، ورمتْ بك إلى ما وراء الشمس، لأنَّك أزعجتَ سيادةَ العاهرة المقدسة.

بينما قد تستيقظُ ذات صباح، لتسمعَ أنَّ جثةً لشابٍ وجدتْ مرميةً على قارعةِ الطريق، معصوبُ العينين، منزوعُ الأظافر، تبدو عليه آثارُ تعذيبٍ وحشية، وحين تسأل عن سببِ قتله، تأتيك الكلماتُ متخفيةً خلف صمتٍ مريب، إنَّ هذا الشابَّ كان فاسقاً، عاصياً، لا دين له، لأنَّه قد أطالَ شعره، وربطه كذيلِ حصان، متشبّهاً بالنساء، وفوق هذا فإنَّ ألوانَ قمصانهِ كانتْ زاهية، كأنه فتاة، وهذا يجلبُ العارَ ويضلُّ البلادَ والعباد، ويمنع غيثَ السماءِ، وكان لا بدَّ من نحرِ رقبته، ورميهِ كالكلاب، طاعةً لله ورسوله.

أصبحنا ننزلقُ نحو الهاوية بسرعةٍ ضوئيةٍ عجيبة.

ولم نعد نعلم، هل نحن أحياءٌ، أم أموات! مهرجون، أم دمى محشوة بالقطنِ، معلقةٌ أطرافها بخيوطٍ واهية.

**تتداخلُ الحياةَ بعضها مع بعض، كالضفيرة،**
**وكلُّ شيء فيها هو جزءٌ من شيءٍ آخر.**

**"أوشو"**

(30)

# شتاء 2014م

(لعينيك.. لون العشب الطري.. بعد ليلة ماطرة)

إنه أولُ يومٍ لي في الوظيفة، بعد تخرّجي من كليةِ الهندسةِ، قسمُ العمارة، بتفوّقٍ، ومعدلٍ كبير، فحصلتُ على وظيفةِ معيدٍ في قسمِ العمارة نفسه، كان صباحاً بارداً، لكنَّ السماءَ كانتْصافية، ترصَّعُ وجهَها بعضُ الغيمات البيضاء المتناثرة مثل ندفٍ من القطن.

دخلتُ قاعةَ المحاضراتِ ووضعتُ أوراقي على المنضدة، وحاولتُ أن أبدو بمظهرِ الأستاذ المتمرسِ قدرَ استطاعتي، وقد أعطتني بذلتي السوداء، وأناقتي التي بالغتُ فيها، بعضاً من الثقةِ والراحة، وأنا أبدأ يومي الأول هذا.

كان أمامي حشدٌ من الطلبةِ والطالبات، يصطفّون في خطوطٍ أفقية، فوق مقاعدهم.. ألقيتُ نظرةً فاحصةً، ثم خرجَ صوتي قويّاً مرحا:

صباح الخير.. أعرفكم بنفسي، أنا الأستاذُ علي حسين، معيدٌ في قسمِ العمارة، سأشغلُ مكانَ الأستاذِ رمضان،

الذي أنهوا خدماتَه بعد هجرتهِ خارج العراق، وسأحاول أن أكملَ معكم ما فاتكم من المحاضراتِ في غيابه.

كنتُ مبتسماً، بسيطاً، وقد بادلوني التحيةَ بمرحٍ كبير، وراحةٍ أكبر، أعتقدُ أنَّ أعمارنا المتقاربة، كانت سبباً في هذه الألفةِ التي تكوَّنتْ بيننا منذ اليوم الأول.

انتبهتُ إلى عددِ الطالبات، كان عددهنَّ قليلاً جداً، قياساً بالطلبةِ الذكور، وفي الصفِّ الأولِ كانت تجلس طالبتان مميزتان جداً، ورغم أنَّ الشمسَ كانت تدخلُ قاعةَ المحاضراتِ من جميعِ النوافذِ، وتضيء المكانَ، وتنشرُ فيه الدفء؛ إلا أنها لم تستطعْ أن تخفي النورَ الساطعَ لطالبتي كانتا تجلسان لصقَ بعضهما، تتهامسان بصوتٍ خافت، وتضحكان خلسة.

أحداهما كان لها شعرٌ أحمر نحاسي، وبشرةٌ بيضاء، يطرّز خديَّها بعضُ النمش، وتطوّقُ عنقها سلسلةً ذهبية، تحملُ في وسطها صليباً ذهبيا.

أما رفيقتها، فقد كانت تبدو مثلَ نجمةٍ هاربةٍ من عتمةِ الليلِ، جلستْ في وضحِ النهارِ أمامي، تتلألأ بوجهٍ ملائكيٍّ ناصعِ البياض، تزيّنه عينان خضراوان، تشبهان بخضرتهما، حجرَ الزمرّد النقي.

لـم أرَ فـي حيـاتي وجهـاً مثـل وجههـا! كـان شـعرهُا الكثيـفُ حالـكَ السـواد، يغطّـي كتفيهـا، وينسـدلُ حتـى خصـرها الأهيـف، لـم يكـن جمالُهـا فقـط هـو مـا لفـتْ انتبـاهي، ولا الصـليبُ المعلـقُ فـي رقبـةِ رفيقتهـا، ذات الشـعرِ الأحمـر، لكـن نظراتهـا التـي تتجـه نحـوي، والتـي لـم تتركْنـي لحظـةً واحدةً طيلة وجودي في القاعة..

عيناهـا كانـت تخبرنـي بشـيءٍ مـا.. شـيءٍ يشـبه ضـوءَ شـمعةٍ خفيـف، فـي نهايـة طريـقٍ معـتم.. شـيءٍ لـه رائحـةُ التـرابِ المبللِ بعد يومٍ ممطر...

# (31)

يبدو أن الأرقَ رفيقي هذه الليلة، فمنذ ساعةٍ وأنا أتقلَّبُ في فراشي، دون أن يقتربَ النعاسُ من جفني.. لا أعتقدُ أنني على طبيعتي هذه الليلة، فأفكاري مشوشةٌ وتلك العينان لا تفارقان مخيَّلتي

ما هذا العبث ؟!

كيف أنجرُّ لمشاعرِ المراهقة، وأنا في العقد الثالث من عمري ! أمِنْ أجلِ عينين خضراوين يجافي النوم مضجعي! لكنها تربكني، وسؤالٌ يلحُّ في رأسي.. لِمَلَمْ تكنْ تعلق صليباً في رقبتها كرفيقتها، فشكلها وبياضها المرمري؛ يرجِّحُ أنها من الديانةِ المسيحية، مثل رفيقتها حمراء الشعر.. ثم ما سرُّ نظراتها تلك، فعيناها كانتا تتبعاني، وتحصي علي سكناتي وحركاتي طيلةَ الوقت.

أزعجتني أفكاري، فخرجتُ من غرفتي، واتجهتُ نحو غرفةِ الجلوسِ، حيث كان أبي يسهرمع قدحِ الشاي، وعلبةِ سجائره المرافقة له دوما. شاهدته مسترخياً مغمضَ العينين، يستمعُ لأغنيةٍ كل ليلة، أغنيةٍ عراقيةٍ لمطربٍجنوبي،

صوتُهُ شجيٌّ مثل ناي.. كان والدي يردُ معه بصوتٍ يشبه الهمس:

"بس حبك قدري المكتوب .. المكتوب... تدري شكد حملني ذنوب.. ذنوب"

- آه يا أبي.. ما قصتك وهذه الكلمات! ألا تملُّمن سماعِها كل ليلة؟

التفتَ أبي ناحيتي، ثم قهقهَ بضحكةٍ قصيرةٍ ومقتضبة ومستعارة، فتلك العينان المجهدتان، عينا أبي اللتان عرفتهما، هكذا مذ أن رأيتُ النورَ أوّلَ مرةٍ في حياتي، لم يكن باستطاعتهما الفرحَ، فكان يزيّفُ الضحكَ والسعادة، ويستعيرُ الطمأنينة، ثم يغلّفُ بها محياهُ، مثل قناعٍ شفّافٍ يفضحُ دواخلهِ المشتعلة، ومُعتركَهُ مع الحياة.

- أهلا يا بني، أرى أنَّ النومَ جافاك هذه الليلة، تعال واجلسْ بجانبي.

- بالفعل يا أبي، لا أدري ما الذي يقلقني، قد يكون صوتُ الريحِ في الخارج، فهي تدوي بصوتٍ مزعج، ولا يمكنني النومَ بصحبةِ هذا القلق.

- لكنّها كانت تدوي بصوتٍ أقوى في الليلة الماضية، وقد نمتَ ملءَ جفنيك يا ولد.

وكالعادةِ أردفَ أبي كلامَه بتلك الضحكةِ المستعارةِ، ثم سألني:

- كيف كان يومك الأول في التدريس؟ حمامة، أم غراب

- بل صقرٌ شامخٌ يا أبا علي، كان يوماً رائعاً يا أبي.

- الحمد لله.. نجاحك يا علي، يزيح كلَّ تعبِ السنين عن كاهلي..

سأذهب لأنّامَ يا بني، قد تأخّر الوقتُ.. تصبح بخير.

- تصبح بخير يا أبي...

لا تنساني بالدعاء، عند استيقاظك لصلاةِ الفجر.

لاحقتْ عيناي والدي، وهو يتجهُ صوبَ الرواقِ المنخفضِ الإضاءة، متجهاً نحو غرفةِ نومه، تأمّلتُ ساقه النحيلةَ المعاقة، وكتفيه المحدَودبتين، كأنَّ عقوداً كاملةً تتكئ بكل ثقلها على ظهره، حتى انحنى.. أشعرُ أنَّ هذا الرجلَ يحمل تأريخاً كاملاً فوق كتفيه.. تاريخاً لم أكنْ موجوداً فيه، وحتى أبي لم يعشْ سوى جزءٍ منه، عهوداً لم أتعرّفْ عليها، سوى من الكتبِ وانحناءِ ظهرِ أبي، ودخانِ سجائره، عهداً ملكيّاً، انقلاباً عسكريا، إبادةً للعائلةِ المالكة، حكمَ العسكر، تبرعمَ نبتةِ الانقلاباتِ العسكرية، رجالاً ببذلات عسكرية، يتولَّون الحكمَ؛ ثم يقتلهم رجالٌ آخرون، ببذلاتٍعسكريةٍ أيضاً، يتنازعُ الجميعُ على دفَّةِ

الربّان.. حكمٌ جمهوري، ثم ديكتاتوري، سجونٌ تمتلئ، ثم تُجهَضُ، جثثٌ مجهولةُ الهوية، حربٌ، ثم حربٌ، ثم سقوطٌ، ثم خراب.. كلُّ ذلك كنتُ أتحسسُ ثقلَ وزنهِ على كتفيّ أبي المحدودبتين، حتى اختفى ذلك الرجلُ اليافعُ، منتصبُ القامة، فارعُ الطول، الذي أشاهده في الصور، نظرتُ لصورةِ أبي المعلَّقةِ على جدارِ غرفةِ الجلوس، رجلٌ طويلٌ، منتصبُ الكتفين، يرتدي بذلةً، تنسابُ بأناقةٍ على قدّهِ الرشيق، رغم نحافةِ ساقهِ المعاقة، الظاهرةِ من خلف قماشِ بنطاله السميك.

نظراتُه يملؤها العناد، تشعُّ من عينين واسعتين، بلونٍ عسلي براق.. كانت صورةُ عرسهما؛ تظهر أمي بجانبه، تمسكُ بذراعهِ، مرتديةً فستانَ زفافها الطويل، وهي تبتسمُ بخجل، وضفيرتها الشقراء، تتدلَّى على كتفها الصغيرة.

فكرتُ.. كم يحملُ أبي من الهموم، حتى صار كأنه جد، ذلك الشاب في صورة عرسه..

كنت أشعرُ دوما أنَّ هناك شيئاً ناقصاً في علاقةِ أبي وأمي، شيئاً لم أستطعْ أن أقبضَ عليه، لكنني متأكدٌ من وجوده، كان شيءٌ يُشبهُ غيابَ الطعمِ اللاذعِ من الطعام، وكأنك تقضي حياتك تتناول طعاماً باهتاً، باردا.. لا نشوةً فيه.

تلك النشوةُ التي يبعثها فينا تذوّقُ الطعمِ اللاذع، حين تشعرُ أنَّ حـرارةً تنبعـثُ مـن جوفـك، وتتـدفقُ فـي وجهـك، وأوصالك تمدُّك بالطاقةِ، والنشاطِ، والجنون.. كان هذا ما تفتقرُ له علاقتهما..

كانا لا يشتعلان.. كانا منطفئين؛ بل كانا رماداً فوقَ جمرٍ بارد.

أشعر أحياناً أنَّ في داخل أبي جزءٌ ميتٌ، لا بل أجزاءٌ، قد ما تِتال واحدُ تلو الآخر، بتسلسلٍ رقمي منضبط ، إنها تتسع، تحتلُّ روحَ أبي بالكامل، أو أقل بقليل، فحين أتأمَّلُ ظهـرَهُ المحـدودب، وتجاعيـدَ وجهـهِ، التـي تغـرقُ فـي أخاديدها الدموعُ خفيةً؛ يتملّكني أحساسٌ أنَّ موتاً قديماً يحتلُّ روحَ والدي، موتاً مُعتَّقاً، كلما تعاقبتْ عليه السنون؛ تضوعُ منه رائحةُ الكبرياء. يذكرني موتُه بالنبيذِ المعتَّق، رغم أنني لم أذقْ يوماً طعمَ النبيذ، لكنني سمعتُ أنَّ النبيذَ المختنقَ في قنانيهِ الزجاجية المغلقة لعشراتِ الأعوام؛ يطلقون عليه اسمَ النبيذ المعتق، وهو أجودُ، وأغلى أنواعِ النبيذ.

يا ترى، ما الذي خسره أبي، ليموت هكذا بالتجزئة!

في مرّاتٍ كثيرة، أُصابُ بالهلع، حين أفكرُ باليوم الذي سيموت فيه آخرُ برعمٍ أخضر في شجرةِ روحِ والدي

الجافة، يُخيّلُ إليَّإن مات والدي؛ سيموتُ آخرُ رجلٍ يحملُ طائرَ الحرية بين أضلعه، قد يرحلُ برحيلهِ آخرُ رجلٍ نطقَ بكلمةِ " لا" قبالةَ زبانية الجحيم، آخرُ الأحرارِ في زمنِ العبيد، والمتملقين، لاعقي الأحذية والأقدام.

دخلَ والدي غرفتَهُ، لينامَ وبقيتُ وحيداً، أسترجعُ في مخيّلتي أحداثَ الصباح، وصوتُ الريحِ يدوّي في الخارج، وصريرٌ مزعجٌ يُسمَعُ من الأبواب الخشبية، والنوافذ التي تضربها الرياح الغاضبة. نظرتُ إلى الساعةِ المصلوبة على الجدار، فوجدتُها قد شارفتِ الثانيةَ بعد منتصف الليل.

دخلتُ غرفتي، ووضعتُ وسادةً على رأسي، وغرقتُ تحتها في ظلمةٍ عميقة، علَّي أطردُ تلك العينين العشبيّتين الملتصقتين في مخيلتي.

# (32)

ستونَ يوماً عددتها على أصابعي، وكل صباحٍ فيها تتأخرُ الشمسُ فيهب الشروق، حتى أرى وجهها، وهي تجلسُ قبالتي - كشأنها كل يوم - في الصفِّ الأولِ من صفوفِ المقاعد الأفقية، عندها أشعرُ أنَّ الصباحَ قد بدأ، وخرجتِ الشمسُ من مخبئها، ونثرتِ الضياءَ في كلِّ زوايا قلبي.

طيلةَ تلك الأيام، لم أتمكَّنْ من التحدّثِ إليها. كنا نتبادل الابتسامات فقط، لم أجرؤ على بدءِ الحديثِ معها، وحاجزُ الدينِ كان يقفُ بيني وبينها، لم أسألْها.. لكنني شبهُ متأكدٍ من أنها مسيحيةُ الديانةِ، مثل رفيقتها.

لكنَّ هذا الصباحَ يبدو غريباً قليلا.. فحين دخلتُ قاعةَ المحاضرات، لم ترفعْ سارة رأسها لتبادلني التحية، ولم تبتسمْ لي مثل كل يوم، كانت تجلسُ وحيدةً من دون رفيقتها، ذات الشعر الأحمر المتوهج، وكثيرٌ من الانقباضِ والحزنِ يبدو واضحاً على وجهها الحليبي.

أكملتُ محاضرتي، وحزمتُ أوراقي، ووضعتها في الحقيبةِ الجلديةِ الكبيرة، مع حاسوبي المحمول، الذي يرافقني دوماً خلال يومي، ووضعتُ الحقيبةَ على كتفي،

وهممتُ بالخروج، لكنني لم أستطعْ أن أخطو خطوةً واحدة، دون أن أفهمَ سببَ حزنِها اليوم.
اقتربتُ منها، فانتبهتْ ورفعتْ رأسَها تنظرُ إلي .. ..
- صباح الخير
- صباح الخير، أستاذ علي
- ما بك سارة.. تبدين لستِ على ما يرام، ثم هذه أوَّلُ مرةٍ أراك وحيدة، دون رفيقتك.
هل حدث مكروهٌ لا قدّرَ الله؟
- تركتني أستاذ علي، تركتني هند، رفيقة عمري، وهاجرتْ أمس إلى كندا...
لم تكن ترغب بالهجرة، لكنك تعلم بما يحدث في أيامنا هذه، فقد جاءهم تهديدٌ صريحٌ قبل يومين، وخيّروهم بين ترك دينهم، ودخول الدين الإسلامي، أو القتل.
هند وأهلها أناسٌ طيبون ومسالمون، إنها رفيقتي مذ كنتُ في الثانوية..
فلم يبق أمامهم سوى الهرب، بعد أن صار القتلُ أسهلَ من تقشيرِ موزة.
"كانت سارة تتكلمُ والغصة تعتريها، ولونٌ أحمر يلوث بياضَ عينيها الصافيتين".

- نعم الآن فهمتُ سببَ الضيق الذي أنت فيه، ففقدانُ الأحبَّةِ سيفٌ حارقٌ، مغروسٌ في القلب.. لكنِ اسمحي لي بسؤالٍ يا سارة

- نعم تفضل

- هل فكَّرتِ أنتِ أيضاً بالهجرة؟ أو هل تعرَّضتم لأيِّ تهديدٍ مثل عائلة هند؟

- لا يا أستاذ علي...

أنا وحيدةُ أمي، وأمي ترفضُ فكرةَ الهجرةِ تماماً، ثم أنَّ ديانةَ هند المسيحية، وهي السببُ وراء هجرتها .

- الستِ أنتِ أيضاً من ذات الديانة؟

- لا.. أنا مسلمةٌ يا أستاذ، هل لأنَّ صديقتي الحميمة مسيحية، اعتقدتَ بأنني على ديانتها؟

- الحقيقة، طيلةَ الوقت وأنا أعتقد انك مسيحية الديانة.. فجمالك والصليبُ المعلَّقُ في رقبةِ رفيقتك الحميمة أعطاني تلك الفكرة الخاطئة.

كانتْ تنظرُ إلى عينيَّ، وتلتقطُ نظراتي المرتبكة، وأنفاسي اللاهثة، وقطراتِ العرق التي تزاحمتْ على جبهتي، فترتسمُ ابتسامةً لذيذةً على شفتيها المرسومتين مثل حبَّةِ فراولةٍ طازجة.

لم أستطعْ أن أخفي عنها ارتباكي، ولم يخطئْ راداري، في التقاطِ موجاتِ الحب التي تبعثها عيناها الرائعتان، فكنت أهمس في سرّي:
سارة... يبدو أنَّ لا مفرَّ منك...

# (33)

لو كان أبي على قيد الحياة الآن، ماذا سيكون ردُّ فعله يا ترى؟ وهو يرى مدينته مستباحةً من كائناتٍ غريبةٍ، يتكاثر القملُ في فروةِ رأسها، وشعر ذقنها، ويحرّم الاستحمام في شريعتها مدى الحياة. كائنات يحسبون على الجنسِ الذكري من البشرِ، فقط لأنَّهم يمتلكون عضواً ضخماً بين أرجلهم.

هل كان والدي الرجلُ العسكري الذي يحلقُ ذقنه مرتين في اليوم، ويرفضُ ارتداءَ بيجامته قبل النوم، إلا إذا كانت مكوية، ويظهر على بنطاله حدَّ السيفِ من شدّةِ الكي، يحتمل رؤية مدينته الموصل، يحكمها رجالٌ برائحةٍ عفنةٍ، وملابسٍ سوداء قذرة، وذقونٍ، تمرح فيها الحشرات، وتبني فيها العناكب بيوتها وتتكاثر!؟

أبي القائد العسكري الكبير، الذي خاض الحربَ الطويلةَ، وتحمَّلَ الويلاتِ في السنواتِ الماضية، كان يهمسُ في أذني قبل أن يفارقَ الحياةَ، وهو على فراشِ المرض:

- سارة حبيبتي.. كوني صلبةً وشامخة، مثل شجرةٍ عميقةِ الجذور.. لا تسمحي للعواصفِ باقتلاعك، لا تقلقيني في قبري يا ابنتي.. أنت وحيدتي، لا أشقّاءَ ولا شقيقات لك..

فكوني فتاة بمئةِ رجل.. اجعلي الله في قلبك، وليس في مظهرك، فليكن قلبك طاهراً، مثل ماءِ الفرات، الذي لم تلوثْهُ فضلاتُ الجبناء، مهما تكدَّست على سطحه.

لم أفهمْ- وقتها - كلماته تلك، كانت مثل لغزٍ بالنسبة لي، وأنا لم أبلغْ الثالثةَ عشر من عمري بعد، لكنه حفرها في قلبي وذاكرتي.

تسكنُ عشيرةُ أبي مدينةَ الموصل. كان يقول لي دوماً: سارة لم تَرِثي منّي سُمرتي، ولا ضخامةَ أنفي، وضيقَ عيني، أنت محظوظةٌ يا فتاة، فقد ورثتِ حسنَ والدتك، ببشرتها البيضاء، وخضرةِ عينيها، لكنك أخذتِ مني الشجاعةَ والصلابةَ، وعزيمةَ الرجال، ابنةُ أبيك بحق.

لكنني الآن أفهم كلماته جيداً، فحين تأكدتُ من حبِّ علي لي، ومن صدقهِ، وقلبهِ الطاهر؛ أخبرته عندها، أننا مختلفان في المذهب. لكنه اختلافٌ شكلي، فكلنا نعبد إلهاً واحداً، ونصلّي خمسةَ فروضٍ في اليوم، ونصومُ ثلاثين يوماً، أو تسعةَ وعشرين أحياناً، ونحجُّ إلى قبلة واحدة.

فمتى يفهم الناسُ أن ما يجمعنا أقوى من الذي يفرقنا.

عمّاتي وأقاربي وأجدادي ما زالوا يسكنون مدينة الموصل. لكنني في أوقاتٍ كثيرةٍ كنت أذهب بصحبةِ والدتي لنزورَ

الأمامَ الحسين في كربلاء، لم أشعر يوماً بأنَّ مرضَ الأنواعِ، والفصائلِ، والطوائف قد أصابني، لأنَّني ببساطةٍ شديدة؛ أؤمن بالإنسانية قبل الدين. وفي هذه النقطةِ بالذات كنا أنا وعلي متفقان جداً .

في بدايةِ علاقتنا كان علي متخوفاً من رفضي له بسببِ اسمِهِ الصريح، الذي يشي بمذهبِهِ الشيعي. فرجلٌ يحملُ اسم "علي حسين علي" ماذا يمكن أن يكون سوى شيعيٍّ بالوراثة .

المذهب يمكن أن يأتي بالوراثة.. لكنَّ القلبَ الطاهر، والعقلَ المتفتحَ، والخلقَ الطيب؛ نحن من نصنعُهُ بتنقيةِ الروحِ من شوائبها.

نعم قد كنتُ معجبةً بعلي، من أولِ يومٍ دخلَ فيه علينا قاعة المحاضرات، فقد كان شابّاً، وسيماً، ذا طولٍ فارع، وبشرةٍ سمراء صافية. كانت نظراتُهُ تخطفني، وتحلّقُ بروحي في سماءٍ بعيدة، لا يسكنها سوى لونِ عينيه العسليتين. لكنني أحببته جداً بعد أن تحدثنا.

علي، رجلٌ يحملُ أيمانَهُ في قلبه، وتربطُه جذورٌ، قويةٌ، صلبةٌ، بترابِ الوطن.

كان يقول لي:

سارة، هناك حبلٌ سرّي، خفي، يربطنا بالوطن، فيمكن لنا أن نكرهَ من خان الوطن، أو نكرهَ من يحكمُ الوطن، أو أن نكرهَ ما آل إليه مصيرُ الوطن.. على أن لا نكرهَ الوطنَ نفسَه.

لكن لأيّ منحدرٍ يسيرُ هذا الوطن؟

فعماتي وأقاربي محتجزون هناك في الجانبِ الأيسر، من مدينتي الموصل، وانقطعتْ كلّ أخبارهم عنا، منذ قرابةِ الثلاثة أشهر. أرى مشاهدَ الرعبِ كلَّ يومٍ تنقلها القنوات، الجرذان بلحاهم القذرة، وثيابهم السوداء، يتجوّلون في الشوارعِ الخربةِ للمدينة، ويزرعون راياتهم السوداء على سطوحِ البيوت، والدوائر الحكومية.

لو كانتْ رفيقتي المسيحية هند هنا، لماتتْ كمداً على مدينتنا. فهي مسيحيةٌ موصلية، ولو كانت اليوم في الموصل؛ لصارتْ سبيةً، ملكَ اليمين لأصحابِ اللحى القذرة، والجسدِ العفن، ولَتبادلوا الأدوارَ على جسدها الغض الطاهر، باسم نكاحِ ملك اليمين.

كانتِ الأخبارُ عن حكم الدواعش القذر، في مدينتي الموصل، تأتينا من بعض أقاربنا الذين هربوا من المدينة، وتركوا منازلهم وراءهم، يطلبون النجاة بأرواحهم، ومن

خلال القنوات الفضائية، وبعض الأخبارِ المسربة من هنا وهناك.

أخبرتني عمتي الفارّة من المدينة: أنَّ الدواعشَ المجانين، حرموا على النساء هناك، طلاءَ شعرهنَّ بالأصباغِ، ونتفَ زغبِ حواجبهن، ووجوههن، ومن تفعل ذلك؛ تعاقب بالجلدِ، والمرأةُ صاحبةُ صالون التجميل، التي كانت تقوم بهذا العمل، تكون عقوبتها قطعُ أصابعِ كفّها.

أخبرتني أيضاً أنَّ هؤلاء الممسوسين، علموا عن طريق نسائهم "الداعشيات" اللاتي كُنَّ يتخفينَ ويدخلنَ بين نساءِ المدينة، وصالونات الحلاقة، يقتنصنَ الأخبار.. بأنَّ فتاةً طلبتْ من صاحبةِ صالون الحلاقة، أن تضعَ لها وشماً مؤقّتاً، لاصقاً على ظهرها، وحين وصلَ لهم الخبرُ؛ قاموا بجلبِ المرأةِ المسكينة، صاحبةِ صالونِ الحلاقة، وجلدوها مئة جلدة، وقطّعوا لها أصابعَ كفّها، جزاءً على عملتها تلك. ثم بعدها قاموا بغلقِ كلِّ الصالونات، وحرموا تجميلَ النساء، عدا نسائهم، فكانوا يأمرون بعضَ الصالونات النسائية بالعمل على تزيينِ نساءِ الدواعش بحجةِ أنهم يقاتلون، ويجب أن يتلذذوا برؤيةِ نسائهم في أجمل صورة.

في أحدِ الأيامِ شاهدتُ مقطعاً مسرباً من مدينة الموصل، لفتاةٍ كانوا يعذبونها بآلةٍ تُسَمَّى "العضاضة" وهي شيءٌ معدني، يشبه مصيدةَ الحيوانات، ولها أسنانٌ معدنيةٌ مدببة. فكانوا يعاقبون تلك الفتاةَ بقرضِ يدها، بالعضاضة، لأنَّها خرجتْ دون أن ترتدي القفازات، مع أنها كانت ترتدي النقابَ كاملاً، وهو الزيُّ الذي فرضته داعش على نساءِ الموصل بعد استباحتها.

يبدو أن أصابعَ الفتاةِ كانت مصنوعةً على شكلِ فرجِ امرأة، وما أن تقع نظراتُهم على أصابعها حتى تستثارَ غرائزُهم، وتنتفخَ أوداجُهم، وتحمرَّ أحداقُهم، ويسيلَ لعابُ شهواتهم، لذا قطّعوها لها؛ لأنَّها أصابعُ فاجرةٍ، فاسقة، خرجتْ من الكفِّ، دون أن ترتدي ملابسَها الداخلية.

أحيانا وأنا أشاهدُ وأستمعُ لأخبارِ مدينتي المستباحة وأراها خَرِبَةً، يتجوّلُ فيها الغربان، تنتابني نوباتُ تقيؤٍ متكررة. وأشعرُ أنَّ كلَّ فتاةٍ اغتصبوها هناك، تلبسني روحُها، فانفرُ من جسدي، وتراودني كوابيسٌ مرعبة، وأرى نفسي وسطَ رجالٍ يلبسون السواد، ويتحدثون إليَّ بكلماتٍ غريبة، وكأنها عدّةَ لغاتٍ، من عدّةِ دول. يحيطون بي، وأيديهم تحاولُ لمسَ جسدي. فأرى نفسي وأنا أمسكُ خنجراً، وأسدُدُ نصلَهَ إلى قلبي، وأحدهم يكشفُ عن ساقي، فأرفع

يدي عالياً، وأغرزُ الخنجرَ في قلبي، وأصرخُ لكنني لا أسمع صوتي، ولا يسمعني أحد، يتبللُ ثوبي، وجسدي بالدم، لكنهم لا يبالون بدمي، ولا بصراخي، فتمزقُ أظافرُهم القذرةُ ثوبي، ويتعرَّى جسدي، ثم يجثمُ أكبرهم سنَّاً فوق صدري، ويبدأ باغتصابي، والخنجرُ مغروسٌ في صدري، أصرخُ ولا أموت..

أصبحت أحلامي كوابيساً.. وفكرةُ الهجرةِ، والهربِ من البلدِ، بدأتُ تدقُّ في رأسي، مثل ناقوسِ الكنائس.

# (34)

# (قشور ملونة)

كان الغداءُ "سمكا مسقوفاً" الأكلةُ التي يجيدها زوجُ أختي عمر، ويبرعُ فيها كبراعتِه في طلاء الجدران.
وضعَ السمكةَ المشويةَ على المائدة العامرة بالرزِّ والبصلِ والسلطات، لم يكن ينقصنا في جلسةِ غداء يوم الجمعة - الذي تركناه منذ أن انتقل أخي وزوجته مع عمر وأختي إلى حي آخر، بعد أن هجَر عمر وأهله قسراً من حيّنا غير أمي - رحمها الله - والتي كانت ذكراً يطوف بيننا، وترفرف روحها، تمسح وجوهنا المتعبةَ بضياءٍ يتسللُ من شقِّ الذاكرة.
كنتُ أزورُ أخي، الذي سكن مع عمرَ في بيتٍ واحد. لأنَّ من المحالِ على أخي، أن يبتعدَ عن رفيقهِ الروحي عمر، فما كان منه إلا أن تركَ الحيَّ معه، واستأجرا منزلاً في حيٍّ آخر.

بعد أن تحوَّلتِ السمكةُ على المائدةِ، إلى فوضى عارمةٍ من العظام، رفعتِ النساءُ كلَّ تلك الفوضى، واستبدلنْها بصحنٍ كبيرٍ، لفواكهٍ متنوّعة.

أمسكتُ بسكينِ تقطيعِ الفاكهة، ورفعتُ تفَّاحتين من الصحنِ الكبيرِ الشفاف، ووضعتهما في صحني، ثم رحتُ أقشِّرُ التفاحةَ الصفراء، وأقطّعها إلى قطعٍ صغيرة، ثم قشَّرتُ التفاحةَ الحمراء، وفعلتُ بها كسابقتها. ثم قلت لعمر:

-خُذْ هذه القطعة، واخبرني ما هي؟

نظر لي عمر باستغراب، ثم راح يقضمُ قطعةَ التفاح، وهو يواصلُ كلامه، ويكتمُ ضحكته.

- إنها تفاحةٌ طبعاً.. هل تظن أنها باذنجان مثلاً!

- إذاً.. خُذْ وتذوَّقْ هذه القطعة، واخبرني عنها.

تناولها مني، وراح يطحنها بتلذذٍ بين فكيه ثم قال:

- تفاحٌ أيضاً.. ما بك يا أبا علي؟ قد نقيتُ لكم التفاحَ الأصفر والأحمر بيدي، واخترته من أجود الأنواع.

- لكني لم أطعنْ بجودتِهيا عمر، فقط لدي سؤال واحد.. هل انتبهت إلى أنَّ الاختلافَ كان في القشرةِ فحسب.. أما في المضمون؛ فكلاهما تفاح.

**وهذا ما نحن عليه يا عمر.. أو ما يجب أن نكون عليه، نشترك بالمواطنةِ والإخاء، رغم اختلاف العقيدة.**

# (35)

- لا مكان لنا هنا حبيبي.. أرجوك يا علي، يجب علينا أن نحزمَ أمرنا، ونتخذَ قرارَ الهجرة.

الخوفُ والموتُ يحاصرنا من كل جانب.. قلبي يتمزَّقُ خوفاً عليك، إنهم يترصَّدون كلَّ من يحمل شهادةً عليا، وأنت أستاذٌ وتدريسي، وهذا يضعك في دائرةِ الخطر.

- ما هذا الفزعُ الذي يسكنك يا سارة.. ما بك؟

لن يبقى الحال كما هو حبيبتي.. فما زال في البلد رجال، إنهم يحتشدون ويهيئون أمرَهم، لتنظيفِ الموصل من تلك الجِيَفِ العفنة.. لا تخافي حبيبتي، لابد أن يحينَ اليوم الذي نتكاتفُفيه جميعنا.. أنا واثقٌ من ذلك.

أطلقتْ سارة ضحكةً عالية، لكنّها تضجُّ باليأس، هي تعتقدُ أنني ساذج، مغرمٌ بالوطن، أحفظُ الملاحمَ التاريخية، والشعارات، وأرددها مثل ببغاء، سرعان ما ينتفون ريشه بالملقط، ريشةً بعد أخرى، بسببِ حماستي التي تصفُها بالخيالِ العلمي دوما.

- ما هذه الرومانسية يا علي! أيُّ يوم، وأيُّ تكاتفٍ هذا.. إننا نأكلُ لحمَ بعضنا بعضا.

- سارة.. أنا لن أتركَ بلدي، سأختنقُ إن لم أتنفسْ هواءه، حتى لو كان ملوَّثاً، تثقله السموم. لقد وُلِدتُ هكذا حرَّاً مثل أبي.. أبي الذي عرض نفسه للموتِ والسجن، وخرج معاقاً من سجن الدكتاتور، فقط لأنَّه يقدِّسُ الحريةَ، ويحملُ شعارَ الإنسانيةِ فوق الجميع، بينما كان يحملُ غيرُهُ شعار(الزعيم فوق الجميع).

اسمعيني حبيبتي.. نعم، كثيرٌ منا محبطون لأنَّ البلدَ الذي نعيش فيه، أصبح نَتِناً مثل بالوعةٍ للصرفِ الصحي، مغلقةُ المجرى، وطافحةٌ بالقذارة. كلنا يشعر بهذه البشاعةِ التي نعيش فيها يا سارة، لكن إن لم يقم أحدٌ بالمغامرة، والنزولِ بجسدهِ إلى منتصفهِ في تلك البالوعة، ومحاولةِ فتحِ مجراها، ماذا تتوقعين أن يحلَّ بنا؟

ستغرقنا البالوعةُ بمياهها الآسنة؛ ماذا عن والدتك، وأبي، وأمي، وأخوتي، وجارتنا العجوز، التي تودّعني كلَّ صباح، وتلوّح لي بيدها المكسوةِ عظامها بجلدٍ ناشف، فأنا أراها كلَّ يوم، تتكوّمُ بجسدِها الجاف على عتبة بابها، وتدعو لي بقلبٍ طاهر، وترى الخلاصَ من هذا العفن في عيني، وعيون شبابِ الحي، الذين لم تلوّثْهم الجرذانُ، ولم تسحبْهم لأوكارها النتنة بعد.

وأقاربك في الموصل، وأبناءِ عمومتي في الجنوب.. هل نهاجرُ كلنا؟ هل ينجو كلٌّ منا بنفسهِ، ويترك الشيوخ والأطفال والضعفاء، ليموتوا غرقاً في مياهٍ قذرة!

لن ينتصرَ شعبٌ متفرقٌأ علم ذلك، لكن هذه هي جدليةُ الحياة يا سارة، إنها بين نقيضين.. أمس كنت أشاهدُ على اليوتيوب فيلماً قصيراً عن كلبةٍ تبحثُ مفزوعةً عن جرائها الأربعة، وتحومُ حول كثبٍ من الرمالِ والأحجار، تنبحُ بصوتٍ يشبه العويل، فانتبه عليها أحد الشباب، وقد كان المكانُ في أحد المحافظات، فشاهد قدماً صغيرةً لجروٍ مدفونٍ تحت هذا الكثبِ من الرمل والتراب، وبلمحِ البصر، تجمَّعَ مع الشاب خمسةُ شبابٍ آخرين، وراحوا يحفرون الأرضَ بأكفِّهم للعثور على الجراء، والكلبةُ الأم معهم تبحث بأطرافِها الأربعة.. وبعد ساعةٍ من الزمن نجحوا في إخراج الجراء من تحتِ التراب أحياء.

ما يزال هناك نقاءٌ في القلوبِ يا سارة.. ما يزال هنالك رجالٌ يحملون الشهامةَ والشجاعةَ في دمائهم العراقية.. لن أهاجر، لن أتركَ الوطنَ للرعاع، يفسدون عطرَ ترابه بعفنهم وصديدهم.

إنني أشعرُ وكأنَّ طاقةٌ من بخارٍ في داخلي، إن خرجتْ ستحدث صفيراً، طاقةُ الشباب يا سارة، الطموح،

طمـوحي بخـارٌ مضـغوط، إن خـرج؛ يمكنـه أن يشـغلَ مضخاتٍ وعجلات.. وإن لم يخرج سيفجر الآلة نفسها.. هكذا أشعر، وأريد لهذا الطموح أن يتفجَّرَ مثل عينِ ماءٍ زلالٍ في بلدي، وليس في بلدٍ آخر.

سأسألك سؤالاً واحداً، ماذا تريدين أن تكوني، نهراً، أم بحيرة؟

- ماذا؟ هل هذا وقتٌ للمزاحِ والفوازير! أقول لك الدنيا تحترق حولنا، وأنت غير مكترث، تجلس أمامي وترمي لي بفوازيرك العجيبة، يا لبرودة أعصابك!

- مهلاً مهلاً .. هذه ليست فزورة يا جميلة، بل هي فلسفة، سؤالٌ فلسفيٌّ عميق، فالنهرُ مجنونٌ لكن جنونه ليس خاوياً، بل ينطوي على فلسفةٍ عظيمة، إنه يقطعُ ثلاثةَ أرباعِ المسافة، التي يقطعها إن أرادَ أن يسيرَ بطريقةٍ مباشرةٍ للوصولِ إلى مجراه. الأنهارُ لا تحبُّ الطريقَ المباشر، بل هي ترقصُ بتعرّجات والتواءات، تمر هنا وهناك، تترنَّحُ وتتسكَّعُ طويلاً في الأرجاء، قبل أن تصبُّ في مصبِّها الأخير. الحقيقة لا أعرفُ لِمَ تفعلُ ذلك، ربما لأنَّها لا عقلَ لها، فقد تكون مجبرةً على فعلها ذاك منذ أن خُلِقتْ، في حين أنَّ البحيرةَ مغلقةٌ تقفُ مكانها، تاركةً الجداول تصبُّ فيها وتنعشها، البحيرةُ عديمةُ الخبرة، فهي لم تجرّبْ

الطرقَ الوعرة، ولم تلتف حول الحواجزِ والصخورِ لتشقَّ لها طريقاً، كما يفعلُ النهر. لم تدخلْ صراعاً مع محيطها، تقف متصلّبةً في مكانها، متكبرةً دون سببٍ تفخرُ به، أما أنا شخصياً، فلا أودّ مطلقاً أن أعيشَ مثل البحيرة، بل سأكون نهراً مجنوناً يشقُّ بقاعاً غريبة، يرتفعُ ويهبطُ ويجذب معه الوحلَ، والحيوانات، والطيور النافقة، ومياه متخمة برواشحِ أراضٍ وبلدان بعيدة، وأجتاز صراعاتٍ مع نفسي، ومن يحيط بي، وحين أصلُ أخيراً إلى المصبِّ؛ يمكنني أن أفخرَ بنفسي، شاعراً بنشوةِ الفوز، بعد رحلتي الطويلة.
لابد من مقارعةِ الفسادِ والفاسدين. ضِعي كفَّك بكفي حبيبتي، ولنرسمَ لأولادنا مستقبلاً جديداً، وأرضاً جديدة، نتشارك جميعنا فيها، بلا طائفية، بلا تمييزٍ عنصري، تحت مُسمَّى المذهب والعشيرة.
صفَّقتْ لي سارة، بكفيها الصغيرتين، بعد أن أنهيتُ حديثي، ساخرةً مني، ومن فلسفتي، ثم قالت بصوتٍ فيه لحنُ سخريةٍ واستهجان:
- نعم.. أعتقد أنك تتحدثُ عن المدينةِ الفاضلةِ لأفلاطون..
وتحلمُ بتناولِ الفطور مع العصافيرِ في صباحاتِ الملائكة.. أيُّ أرضٍ خضراء هذه، التي تكلّمني عنها يا علي.

أقول لك كلمة واحدة، نحن إن بقينا هنا، فسنكون إما مقتولين أو مقتولين!!

هذه أرضُ الموتِ يا علي، بلدُ رجالِ الظلام، والأزقةِ الخلفية، بلدُ الموتِ والرعب،

ولا وجودَ للمدينةِ الفاضلة، إلا في خيالك، لا تظن أنني سأتخلّى عنك يوماً، لكن صدّقني أنك حالمٌ وخيالي، وقد يؤدّي بك ذلك إلى فقدان حياتك.. هذا البلدُ ليس لمن هو على شاكلتنا يا علي، فقد استباحته الشياطين، ولن تتركه إلا وأرضه يباب.

كلُّ ما حولنا غيرُ مناسبٍ لتحقيقِ ما تسمّيه طموحاً، بل إنك بمكوثِك هنا؛ ستقتل نفسك، وكأنك ذلك الضفدعُ الموهومُ الذي وضعوه في قدرِ ماءٍ تحته النار..

- ماذا؟ إن كنتُ أنا الضفدع، فأنتِ حبيبةُ الضفدعِ المسحور، هيا اعطني قبلةً، وسيزول عني السحر.

- دعني أكملُ كلامي يا خفيفَ الدم.. كنتُ أقصدُ أن الإنسان يحاولُ أن يجبرَ نفسَهُ أحياناً على التكيّفِ مع ظروفٍ قاهرة، وهذا خطأ فادح، لذا كنتُ أقصُّ عليك تجربةً قاسيةً وضعوا فيها ضفدعاً في قِدْرٍ على موقدٍ مشتعل، وحين بَدءَ الماءُ- في القدر- يسخنُ؛ قَفَزَ منه الضفدعُ، وقد كان قرارُهُ صائباً، لكنّهم أعادوه مرةً أخرى

إلى القدر، فراح المسكينُ يجبر نفسَه على التكيّفِ مع حرارةِ الماء، وكلما ارتفعتِ الحرارة، يرفعُ هو من حرارةِ جسمهِ، مستهلكاً بذلك طاقتَهُ، وعندَ وصولِ ماءِ القدرِ إلى الغليان؛ مات الضفدع، لكنه لم يمتْ مسلوقاً بالماءِ الساخن، بل ماتَ بعد أن استنفدَ كلَّ طاقتهِ في محاولةِ التكيّف..

- كلا، لا أعتقد أن ذلك هو سبب موته.

- وماذا تعتقد إذاً، أيها العبقري.. قلتُ لك أنَّ الماءَ المغلي لم يقتله، بل عناده وغباؤه هو من قتله.

- لا يا صغيرتي المدللة، بل الأميرةُ العنيدةُ هي من قتلته، فلم يطلبْ المسكينُ سوى قبلة، قبلة فقط يا سارة، وسيذهبُ عنه السحر، هيا.. اقتربي يا مجنونة.

- أووووه.. كلُّ مرةٍ أُحدِّثُك فيها عن الهجرة، تَقلبُ الحديثَ مزاحاً.

- نعم سأهاجر، لكن إلى عينيك، ففيهما من الحياةِ ما يكفيني، بل سأكون البطلَ الخالدَ في غابات عينيك.

**********

كنا في بيتِ سارة، حين صارحتني بفكرتها عن الهجرة، فمنذ بدايةِ حبنا، كانت سمةُ علاقتنا هي التعاون والتفاهم، وحين طلبتْ مني سارة أن أتعرَّفَ على والدتها؛ وافقت

مباشرة، ولبيَّتُ دعوةَ الشاي عصراً في منزلهم، الذي يشبه قصراً تتقدَّمُهُ حديقةٌ غنَّاء، تصطفُّ فيها أشجارُ الحمضيات، وشتلاتُ الورد بكلِّ ألوانه، وعطرُ شجرة الغاردينيا المزروعة في الزاويةِ البعيدة من الحديقة، يعبقُ متداخلاً مع نسماتِ الهواء، التي تداعبُ أغصانَ شجيراتِ البرتقال والليمون، ثم بابُ المنزلِ الخشبي الكبير، الذي يعجُّ بالزخارفِ ويربضُ على جانبيه، نمران كبيران من الرخام، بفكَّين مفتوحين، وأنيابٍ طويلة. حين اجتزتُ الرواقَ، واجهتني صالةٌ واسعةٌ جداً، صعدتُ إليها عبرَ ثلاثِ درجات من الرخام، كانتِ الجدرانُ مطليَّةً باللونِ الأزرق الباهت، وقد عُلِّقَتْ عليها لوحاتٌ اصطفَّتْ بخطٍّ أفقي، تظهر فيها رسوماتٌ تحكي الحياةَ البغدادية القديمة.. فتياتٌ بأثوابٍ منزليةٍ زاهيةِ الألوان، وضفائرٌ سوداء طويلة، ورجالٌ بعمامةِ الرأسِ البيضاء، تلك التي يرتديها البغداديون على رؤوسهم في الخمسينات والستينات، ثم صورةٌ كبيرةٌ مُذهَّبةُ الإطار، لرجلٍ ضخمٍ كبيرِ الأنف، ضيقِ العينين، يتدلَّى شاربُه الكثيفُ الأسودُ اللون على زاويتي فمه، كان ينتصبُ في الصورةِ بشموخ، بزيهِ العسكري، ورتبتهِ المُثقلةِ بالنجوم، والرموزِ العسكرية،

تحطُّ على كتفيه العريضتين، وتتدلَّى عدةُ أوسمةٍ ذهبية، معلقةٌ على صدرهِ المنتفخ.

اتخذتُ مقعدي على الأريكة المذهبة، التي أشارتْ إليَّ بها والدةُ سارة، تدعوني للجلوسِ، فيما دخلتِ امرأةٌ سمراءٌ قصيرة، تضعُ مئزراً على وسطها، وتدفعُ بكلتا يديها عربةً ذهبية اللون، اصطفَّتْ فيها أطباقُ الحلوى، والسكاكين، والملاعق، وأكوابُ الشاي الخزفية، ووضعتْها بيننا، ثم تكلَّمتْ مع والدةِ سارة، بلكنةٍ أجنبية، ثم أومأتْ لها والدةُ سارة بالانصراف، وتولَّتْ هي بنفسها صبَّ الشاي مع ابتسامةٍ مُتكلِّفة ارتسمتْ على شفتيها.

ولأنَّني ممن يدخلون البيوت من أبوابها؛ شعرتُ أنها فرصتي، كي أفاتحَ والدة سارة برغبتي في الزواجِ من ابنتها الوحيدة، وقلبي يضربُ في صدري مثل طبولِ المعركة، خوفاً من رفضها لي..

والدةُ سارة، امرأةٌ هادئةٌ، رقيقة، لم تفقدْ تلك الرقة، رغم عشرتها الطويلة، لزوجٍ عسكري

حدَّ النخاع. فما زالت تعشقُ الأغنياتِ القديمة، وتضعُ قطَّتها البيضاء في حجرها، تداعبُ ظهرها الناعم بيديها الصغيرتين. إنها نسخةٌ من سارة، لكن مع بعض الخصلاتِ البيضاء في شعرها الأسود، وقليلٍ من الخطوط

الرفيعة التي ارتسمتْ تحت عينيها، وفي جبهتها الناصعة، مع فارقٍ يبدو أنه جوهري، بين شخصيتها وشخصيةِ سارة، أو قد أقولُ بين أفكارهما، فوالدةُ سارة، يظهر عليها النعيمُ، وحبُّ الترف، والحياةُ الناعمة، كان ذلك واضحاً من تعلّقها الشديد بالظهور في أتمِّ زينتها من الفساتين المستوردة، وإصرارها على وضعِ المجوهرات بكثرة، وعلى تنوعِ موديلاتها، في حين كانت سارة فتاةً تعشقُ البساطة في المظهر، وتظهر وهي بجوار والدتها، كأنها تلميذةٌ تقفُ بجوارِ سيدةٍ في قصرٍ ملكي.

كنتُ أتأملُ تلك السيدة الغنيّة، وكلماتُ سارة، تمرُّ في رأسي، فقد أخبرتني يوماً، أنَّ والدتها نشأتْ في أسرةٍ فقيرة، وأنَّ كلَّ هذه الرفاهية، هي لما يمتلكه والدها من مزارعٍ وأراض، فجال ببالي خاطرٌ شغلني عن الحديث، فمثلاً، إن كان المرءُ قد ذاقَ العوزَ لردحٍ طويلٍ من الزمن، فلماذا حين يتغيّر حاله، ويرفل في الجاه والنعيم، يصبح مبالغاً في التعبير عن غناه، مترفّعاً عن فقراء القوم؟ فلو شعرَ ذلك النوع من الناسِ بقيمةِ ذاته، وهو فقير؛ لما زاده الغنى، سوى تواضعٍ وبساطة، لكنها عقدةُ النفوسِ الخاوية، التي لا تملكُ من ميزةٍ تعتزُ بها، فيُهيَّأ لها؛ أنَّ ذلك البهرج الخداعَ، سيضفي عليها كرامةً ورفعة.

تبادلنا أنا ووالدة سارة الأحاديثَ طويلاً، وكنتُ أرمي بكلماتي عن مذهبي، وجذورِ عائلتي على مسامعها، وأرقبُ ما يطرأ على وجهها من تعبيراتِ رفضٍ أو قبول، لشابٍّ مخالفٍ لها في المذهب!

فقد وصلَتْ بنا الحالُ، إلى أن يقاطعَ الأخُ أختَهُ، إذا كان زوجها من غيرِ مذهبه، ويبتزُّ آخرون أقرباءهم وأبناءَ حيّهم، إن كانوا مخالفين لهم في المذهبِ، مقابل السكوتِ عنهم، والامتناعِ عن سَوقِهم مثل الخراف، وتسليمهم لعصاباتِ الموت.

لكن يبدو أن خوفي لم يكن في محله، فقد أخبرتني سارة - لاحقاً - أنها عانتِ الأمرَّين في سبيل إقناع والدتها أنَّ اختيارها لي قرارٌ صائب، معتمدةٌ على حبي لها، والشهادةِ العليا التي سأحصلُ عليها قريباً، ثم حصولي على درجةِ أستاذ في الجامعة. فقد كنت أخشى أن يكونَ فارقَ المذهبِ هو ما يشغلُ بالَ والدةِ سارة، لكن اتضحَ لي أنَّه المال، وكوني من أسرةٍ فقيرة، هو ما يمنعُ موافقتها، وبعد جهدٍ كبير، تمكَّنتْ سارة من انتزاعِ الموافقةِ على زواجنا من والدتها، بشرط أن نسكنَ بعد زواجنا في منزلٍ منفصل، ويكون في حيٍّ راق، ونبتعدُ عن حيّنا الشعبي.

توالتْ زياراتي إلى منزلِ سارة كل أسبوع تقريباً، بعد أن طمأنتْني والدتُها بموافقتها على الزواجِ، بشرطِ أن تكمل سارة دراستها الجامعية. كانت زيارتي لهم بسببِ ضعفِ سارة في أحدِ الدروس، فاتفقنا أن أحضرَ لمدةِ ساعةٍ كل أسبوع، لأساعدَها في شرحِ ما يصعب عليها، وقد كانت والدتها مضيافةً، كريمة، إذ لم تنقطع أقداحُ الشاي، وقِطَعُ الحلوى، طيلةَ الساعة، التي أجلسُ فيها في غرفةِ الضيوف، حول الطاولة، أشرحُ لسارة وأضعُ لها اختباراتٍ كانت تنجح في قليلٍ منها، وتخفقُ في كثير.

في حين كانت والدتها، تجلس على الأريكةِ المقابلةِ لنا، بعد أن تضعَ ما لذَّ وطابَ على المائدة، ثم تشغل وقتها بتقليبِ مجلاتٍ من النوعِ التي يعرضُ الأزياءَ، وآخرَ صيحاتِ عالم المجوهرات، طيلةَ تلك الساعة.

# (36)

كان موعدُ محاضرةِ سارة، هو السابعة مساءً، حيث أنتهي في تمامِ الثامنة، وأخرجُ من منزلهم الكائن في جانب الكرخ، قاطعاً الطريقَ بسيارتي الخاصة، إلى الجهة الأخرى من الجسر. حيث جانبُ الرصافةِ من بغداد، فمنزلنا يقع في حيٍّ شعبي من أحياءِ ذلك الجانب المزدحم بالكتل البشرية.

كان الحيُّ ساخناً، وتعجُّ فيه الفصائلُ المسلحة، والوجوهُ الملثَّمة، والمسدساتُ الكاتمةُ للصوت.

عصاباتٌ فاقتْ بغرابتها كلَّأفلام "الأكشن" الأمريكية، لكنني كنتُ قد تعوَّدتُ على الأوضاعِ في حيِّنا، فلم أتورَّعْ عن الدخول، أو الخروج، مساءَ كل يوم.

في تلك الليلةِ كنتُ قد تأخَّرتُ في العودةِ بسببِ عطلٍ بسيطٍ في سيارتي، التي توقَّفتْ وسطَ الشارع، بعد خروجي من منزل سارة، قاطعاً منتصفَ الطريق، فاضطررتُ إلى أن أركنَ سيارتي قربَ الرصيف، وأصلحَ العطلَ بيدي، ثم أو اصلُ طريقي الذي كان مزدحماً جداً بسبب كثرةِ الحواجز، ونقاطِ التفتيش، التي لا طائلَ منها، وحين دخلتُ إلى حيِّنا، كانتِ الساعةُ قد شارفتْ على

الحاديةِ عشرة ليلاً، حيث الأزقةُ مظلمةٌ، باردة، خاليةٌ تماماً من المارّة،

فليلُ الشتاءِ طويلٌ، موحشٌ في حيٍّ تنشرُ العصاباتُ أجنحتها السوداء فيه ليلاً، ويطبقُ السكونُ على الشوارع، إلا من نباحِ الكلابِ السائبة، وبعضِ الإطلاقاتِ النارية، مجهولة المصدر، تخرقُ السكونَ المخيفَ بين الحين والآخر.

حيُّنا يسكنُه الفقراء، أو من هم تحتَ المتوسطِ بقليل، ولم يبقَ إلا بيتنا، لم يطلْه التقسيمُ بعد، حيث لم نزلْ نحتفظُ بمساحتهِ المكونةِ من مئتي متراً، كما هي، في حين أصابَ بيوتاتِ الحي جميعها مرض التقزُّمِ والتقلُّص، فراحتْ تصغرُ وتصغر، بسببِ تجزئتها إلى مجموعةِ بيوتٍ صغيرة، مكوَّنة من أربعين أو خمسين متراً، تلتصقُ جدرانها ببعضها البعض، فمن يسعلُ وهو جالسٌ في غرفةِ المعيشة؛ يسمعه الجارُ الملاصق له، وهو مستلقٍ على الأريكة، في غرفةِ جلوسه، التي تشترك معها بنفس الجدار.

أما غرفُ النومِ، فكانت كارثةً بحق، فما أن يحلَّ منتصفُ الليل، أو قبيلَ حلولِ الفجر بساعتين، حيث تخيِّمُ العتمةُ التامة، مثل عملاقٍ أسودٍ ضخم، ويصمتُ الضجيجُ وتنامُ الأبدانُ المتعبة، وتبدأ نارُ الرغبةِ بالاشتعال في أجسامِ

الرجال، في تلك الساعات الهادئة من الليل؛ ستشعر عندها أنك وسط غرفةٍ مغلقةٍ لتصويرِ فيلم إباحيٍّ طويل، فالتأوّهات تأتيك من خلفِ الجدران الملاصقة لبعضها، حيث يتمتعُ الأزواجُ بخلوتِهم الشرعية في تلك الساعات، بعد أن يغطَّ الصغارُ في نوم عميق.

ولا أظنُّ- ونحن في هذه الخنادق الصغيرة المكدسة بالبشر - يستطيعُ الزوجُ التفريقَ بين تأوّهِ زوجتهِ من زوجةِ جارهِ في تلك الحبكة الليلية المظلمة.

حقَّاً، إنَّ الفقرَ لا يشبعُ بطناً، ولا يسترُ عورة..

حين عبرتُ بسيارتي مدخلَ الحي، اتجهتُ يميناً كعادتي، للوصول إلى الزقاقِ الثاني، الذي يقعُ فيه منزلنا، لاحَ لي في العتمةِ خيالٌ لأربعةِ رجالٍ ملثَّمين، يتجهون نحوي، فأسرعتُ وأدرتُ المقودَ لأفلتَ من المواجهةِ، لكن رصاصتان في العجلتين الأماميتين لسيارتي، أطلقها أحدُ هؤلاء الأربعة؛ أوقفتني في مكاني، وسدَّتْ عليَّ طريق الهرب.

كنتُ أعلم أنهم يجوبون الشوار عَليلاً، ليسرقوا عرباتِ الخضار، والفاكهة المغطَّاة، بعد أن يتركها أصحابُها في "بسطيّاتهم" التي تحتلُّ الرصيفَ ليلاً، ويحكِمون تغطيتها، ليعودوا كشفها وبيعها نهارا، أو يقتحمون منزلَ هذا وذاك،

ممن ترصَّدوهم خلالَ اليومين السابقين، واكتشفوا إنهم باعوا بيتاً، أو سيارة، وبحوزتهم مبلغٌ من المال، كل ذلك "الأكشن الهوليودي "كنتُ على علمٍ به، لكنني ابنُ الحي، ولطالما تنقَّلتُ فيه دون أن يقطعَ طريقي أحد، أو أدخلَ في اشتباكٍ مع أحد.

ضربَ الرجلُ الذي يقفُ أمام سيارتي بعصا طويلة، لها رأسٌ حديدي، فحطَّمَ الزجاجَ الأمامي للسيارة إلى قطعٍ صغيرة، ثم ضربَ آخرَ زجاجِ النافذة، الملاصقة لي، فحطَّمها أيضاً، ثم مدَّ يدَهُ التي تحملُ مسدساً صغيراً، وجَّهَ فوهته إلى صدغي، وهمسَ في أذني:

(انزلْ دون ضجيج يا أستاذ علي، ولا تجبرني على ضربك)

- من أنت، تناديني باسمي، وتعرفني جيداً، قل لي ماذا تريدون مني؟ مادمتم لستم غرباءً عن الحي على ما يبدو.

- أغلق فمك، وتعال معنا

سحبني هو وصاحبُهُ، والمسدسُ مازال بجانبِ رأسي، وربطَ الآخر عيني بعصَّابة، وساروا بي بضعَ خطوات، حيث دفعني رجلٌ منهم داخل سيارة، ثم جلسوا يحيطون بي من الجانبين، ورائحةُ البول التي تنبعثُ من الرجلِ الملاصقِ لي، تزكمُ أنفي، وتقلبُ معدتي، ثم انطلقوا يقطعون الأزقّة الخالية على ما أظن، لأنَّني طيلة الوقت لم

أسمعْ ضجيجاً، أو أبواقَ سيارات، كالتي نسمعها لو كنا نسير في الشارع العام. إنهم رجالُ الأزقة الخلفية، فهؤلاء لن يظهروا إلا في العتمةِ، مثل الخفافيش.

# (37)

اليوم هو الأحد. موعدُ بدءِ الامتحاناتِ النهائية، في قسمِ العمارة، وقد أكملتُ مشروعي الذي أبهرتُ به الجميع، ولم يبقَ أمامي سوى أسبوعين من التعب، إن تخطيتها بنجاح؛ سينتهي مشواري الطويل، وأحصل على شهادةِ البكالوريوس في الهندسة المعمارية، وأحقّقُ لوالدي حلمه.

والدي الحبيب الذي لم يمهلْه القدرُ ليشاركني فرحتي بتحقيقِ ما كان يتمناه لي.

كان الجو بارداً جداً، فالشتاء قاسٍ هذا العام. لكنَّ اليومَ كان مشمساً، والسماءُ صافيةُ الزرقة، ورائحةُ الأرضِ الرطبة، تعبقُ في الجو بعد ليلةِ أمس الماطرة، حيث أفرغتْ السماءُ غيماتها الحبلى، وغسلتِ المياهُ سقوفَ المنازل، وما تبقَّى من الأشجارِ في الشوارع.

كنت أنظرُ من نافذةِ السيارة، وأنا في طريقي إلى الجامعة، حيث كان امتحاني يبدأ في الساعة التاسعة صباحاً، وكم كانتْ تبدو بغدادُ جميلةً في هذا الصباح المشمس، بعد ليلٍ ماطرٍ طويل.

أوصلني العمُّ توفيقُ إلى جامعتي، وودَّعني عائداً إلى بيتنا، حيث كانت والدتي تنتظره للخروجِ في جولتها الأسبوعية للتبضّع.

والعمُّ توفيق، هو سائقنا الذي تعوَّدنا عليه منذ عشرة سنوات، يرافقنا في كل مشاويرنا، رجلٌ طيب، وقورٌ في الخامسة والخمسين من عمره، ورغم أنَّ صحَّتَه لم تكن على ما يرام، إلا أنه يكرهُ الجلوس في البيت.

كان يقول لي:

"الكسلُ وتركُ العمل، يصيبنا بالمرض يا ابنتي، فمنذ طفولتي وأنا أصحو مبكّراً مع صياحِ الديك، وأخرج على بابِ الله، طالباً رزقي، ولن أتركَ عادتي، مادام الهواءُ يدخل صدري"

كان علي قد أخبرني ليلةَ أمس - بعد أن انتهى من شرح الدرس لي في الساعة الثامنة - أنه سيكون بانتظاري في كافتيريا الجامعة، بعد خروجي من الامتحان.

أكملتُ مراجعتي الأخيرة لأجوبتي على الأسئلة، وأغلقتُ دفترَ الامتحان، وسلمته إلى الأستاذ في القاعةِ الواسعة التي كنا فيها، وخرجتُ مسرعةً إلى نادي الجامعة، متلهفةً لموعدي مع علي.

اتخذتُ مكاني في الكرسي المقابل للنافذةِ التي تطلُّ على حديقة الجامعة، ووضعتُ حقيبتي على الطاولة، بعد أن صحّحتُ من هيأتي وأحمرِ شفاهي، جلستُ مسترخية، أترقَّبُ دخوَل علي في أيَّةِ لحظة.

مرَّتْ ربعُ ساعة، ولم يحضرْ علي، كنت وقتها أشغل نفسي بتقليبِ صفحاتِ "الفيس بوك" على هاتفي، لأتجنَّبَ ملَلَ الانتظار، بحثتُ عن علي في "الماسنجر" فوجدتُ آخرَ اتصالٍ له ليلةَ أمس، في الساعة التاسعة مساءً! شيءٌ غريبٌ حقاً.. فهو كل صباحٍ كان يفتحُ هاتفَهُ مبكّراً، ويدقِّقُ الرسائلَ الألكترونية المرسلة له على صفحته الشخصية. هل يُعقل أن يكون نائماً إلى هذه الساعة؟!

لكنَّ الوقتَ الآن، هو الحادية عشرة صباحا.. تسلَّلَ القلقُ إلى نفسي، فاتصلتُ على رقمهِ لكنِ الصوتُ الممِلُّ هو من رد علي "الهاتف مغلق، يرجى الاتصال في وقت لاحق".

تبدَّل القلقُ إلى شعورٍ بالغضب، وبدأتِ الحرارةُ تنبعثُ من وجهي وأذني، فكيف له أن ينامَ ويغلقَ هاتفَهُ، وهو يعلم أن اليوم، هو أول يوم لي في الامتحانات، ونحن على موعدٍ مسبقٍ في النادي!

أعدتُ الاتصالَ ثلاثَ مرَّاتٍ متتالية، والصوتُ نفسُهُ يأتيني من الهاتفِ، ويؤكّدُ لي نسيانَ علي لموعدنا، فقررتُ أن

أخرجَ من النادي، وأذهبَ إلى المنزل مباشرة، وسيكون حسابه معي عسيراً، بعد أن يستيقظَ، ويرى مكالماتي الفائتة، ويعاودَ الاتصالَ بي، سأعلِّمه عدمَ تكرارِ فعلتهِ هذه معي، مرّةً أخرى، فلابد أن أضعَ منهجاً واضحاً لتعامله معي قبل الزواج، فأبغضُ الرجالِ إلى قلبي، هو الرجل المهملُ لزوجتِه. حسناً يا علي، سترى سارة المجنونةَ على حقيقتها اليوم.

# (38)

كنتُ معصوبَ العينين، حين اقتادوني إلى مكانٍ مجهول، وأدخلوني بيتاً، تنبعث منه رائحةُ روثِ البهائم، ثم دفعتني كفُّ أحدهم بقوةٍ إلى داخل الحجرة، وسمعتُ صوتَ المفتاح، وهو يطقطقُ في قفلِ بابٍ حديدي، كنتُ مربوطَ اليدين إلى الخلف، بحبلٍ خشنٍ غليظ، يضغطُ على معصمي.

بقيتُ ساكناً في مكاني، أستغلُّ حاسةَ السمعِ التي تضاعفتْ لدي الآن، بفعلِ انعدامِ الرؤيةِ لعينيَّ المعصوبتين، فكانت أصواتٌ كثيرة، لرجالٍ تطرقُ سمعي من الحجرةِ المجاورة، وصوتُ أغنياتٍ ريفيةٍ قديمة، تصدحُ عالياً، وتزاحمُ تلك الأصوات.

يبدو أنهم في جلسةِ سمر الآن، بعد أن أكملوا مهمَّتَهم واحتجزوني في هذه الحجرة، ولا أدري ما الذي ينوون فعله بي في الصباح.

بعد ساعات لا أعلم عددها، سمعتُ البابَ الحديدي يفتح، وخطواتٍ تقترب مني، ثم أحسستُ بيدٍ تنزعُ العصَّابة عن عيني، وتفتحُ الحبلَ المربوطَ حول معصمي،

فالتفتُّ ونظرتُ من فوق كتفي، لأشاهدَ وجهَ الشخص الذي فكَّ قيودي، لكنه كان ملثَّماً بالكامل، عدا فتحتين صغيرتين حول مكان العينين، ينظر منهما بعينين سوداوين، لم أتبينْ حجمهما.

ودون أن يتكلمَ الرجلُ الملثَّمُ كلمةً واحدة، وضعَ أمامي صحناً يحوي قطعةً من الجبنِ ونصفَ رغيف خبز، ثم خرجَ وأغلق الباب خلفه بالمفتاح، نظرت إلى طعامي، يبدو أنني عزيزٌ جداً على قلوبِ هؤلاء الخاطفين! وإلا لماذا يقدّمون لي الطعامَ بدل أن يجلدوني، أو يبصقوا في وجهي مثلا؟

ثم أنَّفي ساعةِ الخطفِ، ناداني أحدهم باسمي.. هذا يعني أنهم يعرفونني حقَّ المعرفة، ولابد أنهم من حيِّنا، فقد يحييك الرجلُ صباحاً، ويصافحك بحرارة، ثم يضعُ اللثامَ على وجهه، ويأتي ليأخذك رهينةً ليلا، يساوم عليها بأموالٍ لو بعتَ بيتك وكلَّ ما تملك، لما استطعتَ تسديدها.

تناولتُ قطعةً صغيرةً من الطعامِ الذي تكرَّموا به عليّ، ثم جُلْتُ بنظري في الحجرةِ التي تسلَّلتْ أشعةُ الشمسِ إليها من كوّةٍ صغيرة، في أعلى الجدار، بعد زوال عتمةِ الليل. كانتِ الحجرةُ خاليةً من الأثاث، إلا من بعضِ المقاعد

المكسورة، والخردوات، ولها أرضٌ إسمنتية قذرة، لم تمرْ عليها المكنسة منذ أن بُنيتْ.

مرَّ عليَّ النهار في سكون، فلا صوتَ ينبعثُ من الحجرةِ المجاورة، ويتهيأ لي أنَّ البيتَ الآن خالياً إلا مني.. حاولتُ فتحَ الباب الحديدي، فهذه فرصتي للهربِ ما داموا خارج البيت، لكنَّ البابَ كان محكمَ الغلق تماما، فعدتُ إلى مكاني، وجلستُ أفكّرُ في طريقةٍ للخلاص، وصورةُ أبي وأمي وسارة، لمتفارقْنني، فلابد أنهم قلقون جداً لغيابي، وماذا لو ساومهم الملثَّمون على المالِ.. شعرتُ بخوفٍ يعتصرُ قلبي على والدي، فخبرٌ كهذا كافياً للقضاءِ عليه تماما.

# (39)

استغرقتُ في نومٍ عميق، بعد رجوعي للمنزل، فقد كنت أشعرُ بصداعٍ فظيع ينبضُ في رأسي، لابد أنه بسببِ السهرِ ليلةَ أمس وأنا أذاكر، وأيضاً بسببِ غضبي من إهمالِ علي لموعدنا. استيقظتُ بعد الغروبِ مفزوعة، وتناولتُ هاتفي من على المنضدةِ بجانبِ سريري، فتحته وبحثتُ عن أيِّ رسالةٍ أو مكالمة من علي، فلم أجد.

جُنَّ جنوني.. وتحوَّل غضبي إلى قلقٍ وخوف، وهاجسٍ يهمس لي أن مكروهاً قد حدث لعلي، فاتصلت عليه مراتٍ عديدة، وما زال هاتفه مغلقا، فكدتُ أجزم أن حبيبي في مأزقٍ، أو مشكلة، كبيرة، خرجتُ من غرفتي، وارتميتُ باكيةً على حجرِ أمي، حيث كانت تجلسُ في المطبخ، تتابع إعدادَ طعامِ العشاء مع الشغّالة، وتشرف على عملها.

- ماما.. ماما.. علي لا يردُّ، وهاتفه مغلقٌ، لابد أنَّ حدثاً جمّاً لا أعرفه قد حصل، ساعديني وقولي لي كيف نطمئنُّ عليه، أو نعرفُ أين هو!

- اهدئي، اهدئي يا سارة، لابد أنَّ بعضَ المشاغلِ أخَّرتْه، أو قد يكون هاتفه معطّلاً.

- لا.. ماما، إنَّ قلبي يحدثني بأمرٍ سيئٍ قد أصاب علي.
- طيب، اتصلي على أيّ أحدٍ من أسرته.
- لا أعرف رقمَ والدتهِ ولا والده.. لكنني سأتصلُ بالدكتور عمار، فهو صديقُ علي الحميم، ويعرفني جيداً.
- حسناً، هذا هو التصرُّفُ الصحيحُ يا سارة، فقط حافظي على توازنك.

بيدٍ مرتعشةٍ، طلبتُ رقمَ دكتور عمار، وكلِّي أملاً أن يكونَ المانعُ خيرا..

- مساءُ الخير دكتور
- مساءُ النور، أهلاً سارة
- دكتور عمار، كنتُ اليوم على موعدٍ مع علي في النادي، ولم يحضرْ، ومنذ الصباح وحتى هذه الساعة، وهاتفه مغلق. هل تعرف أين هو الآن؟ أنا قلقةٌ جداً.
- الحقيقةُ يا سارة، لم ألتقِ اليوم بعلي، لكن اطمئنّي، سأتصلُح الأَب والده، ثم أعاودُ الاتصالَ بك، وإبلاغك بأخبارِ علي.
- انتظرك..

مرَّتْ عشرون دقيقة، ولم يعاودْ دكتور عمار الاتصال بي، وقد نفدَ صبري، فأمسكتُ بهاتفي وعاودت أنا الاتصال.

- ألووووو

- أهلاً سارة
- ماهي الأخبار دكتور، هل اتصلت بوالد علي؟
- سارة.. اهدئي أرجوك، سأخبرك كلَّ شيءٍ الآن..
اتصلتُ بوالد علي.. علي مفقودٌ منذ الأمس يا سارة، لم يعد إلى البيتِ منذ أن خرج عصراً، ووالداه في حالةٍ يُرثى لها، فقد بحثوا عنه في كلِّ الأماكن التي يرتادها، ولم يعثروا على خبرٍ له، لكنَّ الشيءَ الغريبَ أنهم وجدوا سيارته في الحي، وقد كان زجاجُ النوافذِ محطَّماً، وحين سألوا الجيران القريبين من موقعِ السيارة في الزقاق، إن كانوا قد سمعوا صوتَ اصطدامٍ بين سيارةِ علي وسيارةٍ أخرى؛ نفى الناس تلك القصة، وقالوا أنهم لم يسمعوا أيَّ صوتٍ في الليلةِ الماضية.
خوفي يا سارة، أن يكون علي قد تعرَّضَ للاختطاف، فالحي الذي يسكنُ فيه، تسيطر عليه مجموعاتٌ مسلحة، وقد تعبتُ وأنا أنصحُهُ ببيعِ المنزلِ والانتقالِ إلى حيٍّ آخرَ أكثر استقراراً.
-عفوا دكتور عمار.. أنا والدةُ سارة التي تتكلمُ الآن، فالخبرُ قاسٍ علينا جميعاً، لكنه وقعَ على سارة مثل الصاعقة، فقد رمتْ الهاتف في حجري، وراحت تجري

إلى غرفتها كالمجنونة تبكي، وتضربُ وجهها.. آسفة جداً، سأنهي المكالمة، وألحق بها، لأرى ماذا حصل لها.
- نعم، أتفهَّمُ الحالة.. مع السلامة.
- مع السلامة.

# (40)

قضيتُ ساعاتِ النهار أقطع الأرضية الإسمنتية للحجرة الصغيرة، ذهاباً وإياباً.. مازال السكونُ يخيّمُ على البيت، ورائحةُ الروثِ تشتدُّ مع تغيُّرِ اتجاهِ الرياح، لا أعلم هل هذه مزرعة؟ أم منزلٌ تقع بجانبهِ حظيرةٌ للحيوانات، فحين أدخلوني أمس إلى هنا كنتُ معصوبَ العينين، لكنَّ المكانَ رائحتُهُ نتنةٌ جداً.

سمعتُ صوتَ الأذان يرتفعُ من مسجدٍ غيرِ بعيد، أعتقد أن صلاةَ المغرب قد حانتْ، وضوء النهار في الحجرة الصغيرة تلاشى، وحلَّتِ العتمةُ سريعاً، الحجرةُ باردةٌ ومظلمة، ومنذ الأمس والبرد يتشرَّبُ في عظامي، والرطوبةُ تبللُ ملابسي.

هل سيتركونني وحدي مرميا هنا في هذا البيت المنعزل عن العالم . وإذا طال مكوثي هنا ماذا سيحل بوالدي المتعب ؟.. .. قلقلي عليك الآن يا أبا علي أكثر من قلقي على حالي .

كان أبي يقولُ: أنَّ الصدمةَ تكون شديدةَ الوقعِ إذا تتلقَّاها حين تكون شابّاً، فما إن تُهزمَ في نزالٍ أو قصةِ حب؛ حتى تهبطَ على رأسك، حينما كنت تحلّقُ عالياً في السماء،

وحالماً؛ ترديك صريعاً، مثل طائرٍ أُصيبَ بسهمٍ وهو غافلٌ منتشٍ في تحليقه، طائرٌ مغرور، كلُّ ذلك يحدث في شبابك فقط، والسببُ هو أنَّ الشبابَ يفتقرُ إلى الدهشة، نعم فالشباب لا يتوقَّعون اللامتوقع، لكن تخيل أن تتلقى إحدى تلك السهام وأنت تحثُّ الخطى نحو الشيخوخة، صدّقْني ستتلقاها وكأنها قرصةُ بعوضةٍ قذرةٍ وخبيثة فحسب، ستشعرُ بالانزعاج، وتُصابُ بحكَّةٍ وبعض التعكّرِ في المزاج، لكن سرعان ما ستبتلع كل ذلك، كمن يسيرُ أساساً بحذاءٍ مثقلٍ بالوحل، فلن يرديه قتيلاً إن التصقتْ بحذائه المتسخِ الثقيلِ بعضُ الغرامات الإضافية من الوحل، هكذا هو الأمرُ دوماً، يبتلعُ الشيوخُ جرعاتِ السمّ بشهيّة، وكأنها جرعاتُ دواءٍ مرِّ المذاق، لكنه يخفضُ ارتفاعَ الضغط والسكر في الدم، لذا فرغم مرارتهِ، لكنه ليس أشدَّ مرارةً من الآلامِ المبرحةِ لأمراضهم المزمنة، التي توقظ مضاجعهم ليلا، لكنك إن كنتَ شابّاً، سيكون لسقوطِكَ بعد الصدمة صوتاً مدوّياً، كأنه صوتُ أطنانٍ من الحديد، رُميتْ من بناءٍ عال، لترتطمَ بالأرض، إنكم تفتقرون للدهشة يا ولدي، مثلكم مثل ذلك الأحمق الذي يرافق عاهرة، ثم يلوذُ بالعويلِ حال رؤيتها في فراشِ رجلٍ غيره.

كم كان أبي يتعمَّقُ في تحليلِ الحياة، ربما كان يقصدُ أن يسقينا عصارةَ خبرتِهِ، لتحذيرنا من المطبَّات التي تنتظرنا في الطريق.

سحبني من رحلتي مع ذكريات كلمات أبي، وقعُ أقدامٍ كثيرةٍ تقطعُ الباحةَ الخارجية.. لابد أنهم قد عادوا..

تربَّعت قربَ الباب، وأرهفتُ السمعَ لحديثِ الرجال في الحجرةِ المجاورة. كان بين أصواتهم صوتٌ لامرأة، بقيتُ في مكاني ساكناً، أنصتُ لما يحدث.

بعد ساعة من الزمن، صدحَ صوتُ الأغاني الريفية، تماماً كليلة أمس، ولغطُ وضحكاتٍ كثيرة يعلو عليها صوت الموسيقى الريفية. إنهم يقيمون حفلةَ سمرٍ في كلِّ ليلةٍ إذاً، لكن هذه الليلة جاءوا بامرأة، فصوتُ ضحكاتها العالي ينتشرُ في المكان، إذاً فهي حفلة سمر بصحبةِ عاهرةٍ هذه الليلة.

لم يتفقدْني أحدٌ منهم، ولم يُفتحْ بابُ الحجرةِ الحديدي طيلةَ الليل، قضيتُ ليلتي أنصتُ لصوتِ العربدة والرقصِ في الحجرةِ المجاورة، حتى غلبني النوم.

شعرتُ ببرودةِ البابِ الحديدية، تدفعُ ظهري ببطء، فقفزتُ من مكاني ودخلتُ إلى جوفِ الحجرة، وجلستُ لصقَ

الجدار، كان الظلامُ دامساً، والسكونُ يخيّمُ على المنزل، وخطواتٌ خفيفةٌ تتقدمُ نحوي، لكنَّ الظلمةَ الحالكةَ حالتْ بيني وبين الخيالِ الآدمي الذي اقتربَ كثيراً، حتى تسمَّر أمامي؛ فلم أستطع تمييزه.

ثم سمعتُ صوتاً نسائياً يخرج من الخيالِ الواقف بمواجهتي يهمسُ لي:

- أستاذ علي هل تسمعني.. لا أستطيع أن أرفع صوتي خشيةَ أن يستيقظَ هؤلاء الفجرة المجرمون.

سألتها بصوتٍ قريبٍ من الهمس:

- من أنت؟!

- لا تسألني من أنا.. لكن لوالدك أفضالٌ كبيِّرة علي وعلى أولادي الأيتام، أنا أرملةٌ من حيِّكم، الفقرُ والحاجةُ والابتزازُ الذي تعرَّضتُ له من القذرين النائمين الآن في الحجرة المجاورة؛ هو من أوصلني لهذا الحال. أنا الآن امرأةٌ عديمةُ الشرف، يستغلني هؤلاء اللصوص لأنَّ لا زوجَ لي، ولا أهلٌ ولا سند .

بدأتُ أسمعها تشهقُ وتبكي بصوتٍ خفيضٍ ثم أكملتْ حديثها:

حين تكلِّمَ أحدُ هؤلاء اللصوصِ اليوم عنك، ونحن في طريقنا إلى هنا، صمَّمت أن أسرقَ المفتاح، بعد أن يثملوا

ويفقدوا وعيهم، وأفتحَ لك طريق الهرب، حتى أردَّو لو مقداراً صغيراً من فضلِ والدِك علينا، أنا وأولادي الصغار .
هيا يا أستاذَ علي، اخرجْ بسرعة، قبل أن يفيقوا.. اخرجْ واركضْ بأقصى سرعتك، حتى تصلَّ إلى الطريقِ السريع فهو قريبٌ من هنا .
ثم تدبّرُ أمرك من هناك، لتصلَ إلى أهلك. وأتوسَّلُ إليك أن لا تخبرَ أحداً بقصتي أو وجودي هنا الليلة .
لأوَّلِ مرةٍ في حياتي أقابل إنساناً يحملُ الذلَّ والعار، مع النقاء والشرف سوية! إنها تلك المرأة، أو ذلك الخيال الذي يقفُ قبالتي الآن، ويحدّثني بصوتٍ مرتعشٍ، صوتٌ قهرَهُ الزمنُ، والفقرُ، والبطنُ الخاوية، قلتُ لها صادقاً:
- اعطيني يدك لأقبلها يا سيدتي.. إنك أشرفُ من كثيرٍ، ممن يدَّعون الشرف، وقرّي عيناً، لن أخبرَ أحداً عنك، رغم أنني لم أر وجهك أصلاً، ولم أتعرَّفْ عليك حتى من صوتك.
- أنت وأبوك وأخوتك، رجال طيبون، لو كان كل الرجالِ مثلكم؛ لما حصل لنا ما حصل.
اخرجِ الآن أرجوك، هيا.
- باركك الله يا طيبة..

خرجتُ أجري على غير هدى، أقطعُ الشوارعَ الترابيةَ في ظلمةٍ حالكة، لا ينيرها قمرٌ ولا حتى نجوم، فالسماء تغطّيها طبقةٌ كثيفةٌ من الغيومِ على ما أعتقد، فحجبتْ عني ضوءَ النجوم.

كنتُ أجري وقطراتُ العرَقِ تتساقطُ من وجهي وظهري وسط البرد القارص، وحال تلك المرأةِ يشغلُ تفكيري.. كيف تكمنُ كل تلك الطيبةِ والنقاءِ في نفسها وروحها، في حين تستمرُ في إغراقِ جسدها في القاذورات كل يوم! لا يمكنُ أن يقالَ أنها متجرّدةٌ من الشعور ومنحطة، فمن الواضحِ أنَّ الفسادَ لم يمْسسْها إلا آلياً، ولم تصلْ إلى قلبها قطرةٌ من الانحطاط الحقيقي.. لقد رأيتُ كلَّ ذلك حين اخترقتُ مكامن نفسها، وهي تقفُ أمامي تحدثني..

تذكرتُ سارة.. وحديثها عن الضفدعِ، وسخريتي التي أثارتْ حنقها..

المرأةُ المومس، الضفدع، محاولتُهُ المتكررة للتكيّف مع الماء وهو يغلي، غباؤه أو ضعفُ حيلته، قتلَ الضفدعُ نفسَه، قَتَلَتِ المرأةُ نفسَها...

بعد مدَّةٍ من الزمن، ليست بالقليلة، رأيتُ ضياءَ مصابيحِ الطريق السريع، فتنفَّستُ الصعداء، وضاعفتُ سرعتي في الجري، حتى وصلت، ثم وقفتُ في وسطِ الشارع رافعاً

ذراعيَّ الاثنتين عالياً، محاولاً التلويحَ لأيّةِ مركبةٍ تمرُّ من هنا.

كان الطريقُ السريعُ خالياً، أعتقدُ أنها الساعةُ الأولى قبل حلول الفجر، لكن برحمةٍ من الله، لم يطلِ انتظاري، ورأيتُ أضواءَ شاحنةٍ من بعيدٍ تتجه نحوي، فرحتُ أقفزُ وألوّحُ لها، حتى توقَّفَ السائق قبالتي مباشرة، فتوسَّلْتُ إليه أن يسمحَ لي بالصعود، على أن أنزلَ في بدايةِ الشارع العام، عند انتهاءِ الطريقِ السريع.

وافقَ الرجلُ على مساعدتي، وأركبني شاحنته، وانطلقَ في طريقه، وبعد ساعةٍ تقريباً، وصلنا إلى بدايةِ الشارعِ العمومي، الذي بدأ يزدحمُ بالسيارات، نزلت هناك وسرتُ عدَّةَ أمتار على قدمي، أرقب ضوءَ الفجرِ المنتشرِ في السماء، وانحسارَ العتمةِ في الأفق.

شعرتُ بالهواءِ البارد يلامسُ قطراتِ العرقِ على جبيني، ونسيمٍ عليلٍ خالٍ من رائحة العفن والروث، التي تشبَّعتُ منها طوالَ ليلتين في حظيرةِ البهائم تلك. أحسستُ في تلك اللحظةِ بقيمةِ عملِ الخير، وكيف ردَّهُ اللهُ لأبي وقتَ شِدَّتي.

# (41)

حين دخلتُ منزلي، كنتُ شاحبَ الوجه، ورائحةُ العرقِ والـروثِ تنبعـثُ منـي. كـان الصـباح قـد سـلخ الظـلام، والشمسُ المختبئةُ بخجلٍ خلف الغيوم، ترسلُ دفئاً وضياءً يكفي لنسيانِ برودةِ وعتمةِ الليلةِ الماضية.

راعني هولُ المنظرِ في غرفةِ الجلوس، فقد كان البيتُ يعج بأقاربي وأصدقائي، وحتى جدي شاكر كان هنا. جالساً ورأسه مطرق، وحباتُ الخرز في مسبحتهِ تتساقط، محدثةً طقطقةً عالية وهي بين أصابعه.

كان الرعبُ والحزنُ يسكن ملامحَ والدي ووالدتي، اللذان تعلَّقا برقبتي، وانفجرا ببكاءٍ شديدٍ حين دخلتُ المنزل، وكلماتٌ مثل الله اكبر.. حمداً لله، كانت تتعالى من الجمعِ الذي يغطُّ به منزلنا منذ يوم اختطافي وحتى عودتي.

كان التعبُ والجوعُ قد نالا مني، فقصصتُ ما حدث لي باختصارٍ شديدٍ، لأريحَ القلوبَ القلقة التي تجمَّعت حولي، وحين سكنَ حال المنزل قليلاً؛ توجَّهت سريعاً إلى الحمامِ وفتحتُ الماء الساخن، ثم وقفتُ تحته ساعةً كاملة، مغمضَ العينين، أحاول طردَ كلِّ تلك الأحداث من رأسي، فكان سيلُ المياهِ الساخنة ينساب على ظهري وصدري،

فترخى عضلاتُ جسمي التي تقلَّصتْ وتخشَّبتْ بفعلِ رطوبةِ الحجرة، في منزلِ الروثِ والبهائم.

خرجتُ من الحمام الدافئ، وأنا أشعرُ بتحسُّنٍ كبير، وقبل أن أضعَ لقمةً في فمي، طلبتُ من أبي هاتفه لأنَّ هاتفي أخذه الخاطفون، ثم اتصلتُ بسارة، التي قد تكون الآن في حالةِ انهيارٍ كبير، وقلق لا يحتمله قلبها الطفولي البريء.

- ألووو

أتاني صوتها من الهاتفِ مبحوحاً، كمن أُتلفتْ حبالُهُ الصوتية، بالغناء أو البكاء

- ألوو... من؟

- سارة

- علي ... يارب.. علي.. أين أنت حبيبي... لم يبقَ بيني وبين الجنونِ سوى خيطٍ رفيع، ماذا حصل لك، وأين أنت الآن؟

- قصةٌ طويلةٌ يا سارة.. اتصل بك الآن من هاتف والدي، فقد دخلتُ المنزل منذ ساعةٍ ونصفٍ تقريباً، اطمئِنّي.. أنا الآن بخير، سأرتاح قليلاً ثم أتصلُ بك لأراك.

- لا تتصل.. اذهبْ وخذْ قسطاً من الراحة، وسنأتي أنا وماما لزيارتكم هذا المساء.. أريد أن أفهمَ ما حدث بالتفصيل.

- حقّاً يا سارة.. فهل ستتنازلُ والدتك، وتوافقك على زيارةِ حيّنا الفقير؟ لا أعتقد ذلك، اتركي الأمر، أرجوك.

- ما دامت قد وافقت على مشروعِ خطبتنا، فلماذا لا توافقُ على أن ترافقني لأطمئنَّ عليك؟ لا تبالِ، سأتدبر أمري معها.

- سأنتظركم إذاً، وسأبلغُ والدتي الآن؛ لتستعدَّ لاستقبالكم.

- قلبي معك حبيبي

- أميرتي، اهدئي.. لقد عدتُ، ولن نفترقَ عن بعضنا بعد اليوم.

أبلغتُ أمي وأبي بزيارةِ سارة ووالدتها لنا مساءً . كان والداي على بيّنةٍ من الحب الذي يربطنا أنا وسارة، فقد أخبرتهما مسبقاً بالقصةِ كلها، ووعدُ والدةِ سارة لي، بأن توافقَ على زواجنا بعد تخرج سارة من الجامعة.

دخلتُ غرفتي لأنامَ قليلا، بينما انهمكتْ أمي في تنظيفِ وترتيبِ المنزل، استعداداً لاستقبالِ سارة ووالدتها بعد ساعاتٍ قليلة.

# (42)

كنتُ أقفُ على عتبةِ البابِ الخارجي لمنزلنا، أرقبُ وصولَ سارة ووالدتها، وحين وصلتا دخلنا إلى منزلنا المتواضع جداً، قياساً بالقصر الذي تسكنان فيه، كانت سارة شاحبةَ الوجه، مخطوفةَ اللونِ من شدّةِ القلق عليّ، وكنتُ أنا بشوقٍ كبيرٍ لرؤيةِ عينيها الساحرتين.

أدخلتهما حيث كانت والدتي في غرفة الجلوس، مستعدةً لاستقبالهما.. سلَّمتْ والدة سارة على أمي، وباركتْ لها عودتي حيّاً، ثم دخل أبي للترحيب بهما. كنا ما نزال واقفين نتبادل كلماتِ الترحيب والشكر فيما بيننا، حين نظر والدي إلى والدةِ سارة الواقفةِ قبالته، لم يفتحْ والدي فمَهُ ولم يرحِّبْ بها بل ظلَّي نظرُ إليها نظرةً غريبةً، خليطةً بين المفاجأةِ والحزنِ والذهول، وبدا كمن توقَّفَ عنده الكونُ عن الحراك، وقد امتقعَ وجهَهُ امتقاعاً شديداً، كمن يرى شبحاً، أو من يلتقي بالموت ساعةَ الاحتضار. تعطل عنده الكلام.. تقنَّعَ وجهُهُ الباسمُ بالجدية، وامتلأتْ عيناه دموعاً خجولة، ارتجفت أهدابه وكأنها أضلَّتْ طريقها، حتى أنا شعرتُ بغصَّةٍ مع أني لم أفهمْ ما يحدث.

ثمانتبهتُ أنَّ والدة سارة تبادله نفسَ نظراته تلك، وهي مسمّرةٌ في مكانها، وملامحُ وجهِها تنطقُ بتعبيراتٍ غريبة، لم أستطعْ تفسيرها، شعرتُ أنَّ الموقفَ بدا محرجاً وغريباً، فقطعتُ الصمتَ بدعوةِ والدة سارة إلى الجلوسِ، وشكرتها على حضورها لتبارك لي عودتي من الموت.

قدَّمتْ لنا أمي الشاي مع قطعِ الكعك التي أعدَّتْها بنفسها، وكنت أنا وأمي وسارة من يديرُ دفَّةَ الحديث. قصصتُ عليهما قصةَ هروبي من الموتِ تلك، وتحدثنا في كثيرٍ من الأحاديثِ الجانبية فيما كان أبي طيلةَ الوقت مطرقاً ينظرُ إلى الأرض، ولا ينبسُ بكلمةٍ واحدة. أما والدة سارة، فقد كانت مثل من يتحاملُ على نفسهِ ليجاملَ من حوله بكلماتٍ قليلة، ومسحةُ الحزنِ كانت واضحةً في عينيها المجهدتين، ووجهها الوديع، ومن حسنِ حظي، أن أمي لم تنتبهْ لتصرّفِ أبي وارتباكِه، فقد شغلها الترحيبُ بالضيفتين عن النظرِ في وجه أبي.

انتهتْ الزيارةُ سريعاً، فقد استأذنتْ منا والدةُ سارة، واعتذرتْ عن عدمِ تمكّنها من البقاءِ لوقتٍ أطول، لأنَّها تشعرُ ببعضِ التوعّك، وقد لاحظتْ ذلك على وجهها بالفعل، حتى أن يديها كانتا ترتعشان مثل سعفة.

ودَّعناهما وشكرناهما على الزيارة، وظلت عيناي ترقبهما حتى تحركت السيارة بهما، يقودها العم توفيق السائق.

دخلتُ بعدها لأطمئنَّ على أبي، فقد كان وضعه غريباً طيلةَ وقتِ الزيارة، وأسئلةٌ كثيرةٌ تدور في رأسي، بدأتُ أفكِّرُ بردِّةِ فعلِ والدي الغريبة هذه، هل يُعقل أنه امتعض من سارة ووالدتها مثلا؟ هل غيَّرَ رأيه ولن يأتي معي، بعد أن تتخرجَ سارة لنطلبَها من والدتها، وهل سيرفضُ زواجي منها؟

بحثتُ عنه في البيت، فلم أجدْهُ، ثم أخبرتني أمّي بأنَّ والدي شعرَ بدوارٍ وصداعٍ مفاجئ، ودخل غرفته لينامَ وأوصاها أن لا يزعجَهُ، ولا يدخل عليه أحدٌ منا هذه الليلة.

"الماضي والمستقبلُ هما في أذهاننا نحن فقط.. لا وجوداً حقيقياً إلا للحظة.. الآن.. ما تفعله الآن، سيصنعُ المستقبلَ، ويفتدي الماضي"

# (43)

# (بغداد، الجسر 2015)

حالةٌ من التحليقِ أو الطفو.. أطفو مثلَ ورقةِ شجرٍ فوقَ الأمواج، وأُحلِّقُ خفيفاً مثل طائر "السباراكوف "أغيّرُ لوني مبتهجاً كل ثانية...

لا يزعجني سوى هذا الرجل المرمى على الجسر قربي، إنه يلتصقُ بقدمي، والدماءُ الساخنةُ تتفجَّرُ من ثقبٍ في جبهتهِ السمراء، وتغرقُ وجهَهُ وقميصه.. لا أدري لِمَ يلتصقُ بقدمي! حتى لا يكادُ يترك لي متعةً للتحليق.. يبدو أنَّ رصاصةً طائشةً أصابتْه في رأسه..

فالرصاصُ كثيف هنا.. والاحتفالُ بهيج.. وكلما ازدادتِ البهجةُ؛ ازدادَ الرصاصُ كثافةً... مسكينٌ هذا الرجل، تبدو الحيرةُ على ملامحه الشاحبة، ربما قضى ليلتَهُ على الجسرِ يفكّر في حلٍّ لمعضلةٍ طحنتْهُ، لكن لو أخبرني بمشكلتهِ قبل أن يموتَ؛ لكنتُ ساعدتُهُ في حلِّها..

فأنا أشعرُ الآن بطاقةٍ عجيبة، حتى أنني بدأتُ ألمحَ مخلوقاتٍ ضوئيةً رائعةَ الجمال تحلِّقُ هنا فوق الجسر..

سـأحاولُ الـتخلّصُ مـن هـذا الرجـلِ الملتصـقِ بقـدمي، فالمخلوقاتُ الضوئية تناديني، لكن ربَّاه.. إنه يمسكُ بي بقوة.. يقيّدُ حركتي، بل يقيّدُ رغبتي في التحليق...
أرجوك أيها الغريب المضرَّجُ بالدماء.. ابتعدْ عني، فها قد توازنتْ معادلتي أخيراً.. دعني أحلِّق.. أحلِّق
لا أدري أن كـان ميتـا أم علـى قيـد المـوت .. أو ربمـا هـو يحتضر ببطء مثل سلحفاة .
أيهـا المحتفلـون.. هـل يسـمعني مـنكم أحـد؟ هنـا رجـلٌ مصابٌ على الجسرِ، ينتظرُ أن يحملَهُ أحدُكم، ويسعفه أو ربمـا هـو ميـتٌ، فتعـالوا لتقبـروه وتريحـوه.. أيهـا الأوغـادُ المحتفلون بالموت.. ألا من رحمةٍ في قلوبكم الصدئة!..
أم ران على قلوبكم النفاقُ، فصمَّ الآذان، وأبكم الأفواه...
ألا يمكنُأن يكونَ لهذا الرجلِ زوجةً تنتظرُ عودتَ هُب فزعٍ وفؤادٍ فارغ..
ثم أنه يلتصقُ بي بقوة..
رفعتُ بصري إلى السماء، فوجدتُ القبَّةَ الزرقاءَ المرصعةَ بالنجومِ قد اختفتْ.. أو أعتقد أنها فقدتْ لونها، ونجومها اندثرتْ.. حتى القمر الذي كان بدراً منذ قليل؛ رحل.. لا شيء فوقي سوى الفراغ، ولا أحدَ معي على الجسرِ سوى جثةٍ مثقوبةِ الرأسِ لرجلٍ أشعر أنني رأيته في يومٍ ما، في

مكـان مـا.. كـان مسـجًّى علـى الأرضِ، منفـرجَ السـاقين والـذراعين.. وجـوده يشـعرني بوحشـةٍ خانقـة.. وددتُ لـو أعـودُ لمنزلـي الآن، أرتمـي فـي فراشـي، ولا أفكـرُ بـأمرٍ مطلقا.

سـمعتُ صـوت أحـدهم ينـادي باسـمي مـن الجهـةِ اليسـرى للجسـر.. التفـتُ نحـو مصـدرِ الصـوت، وإذا بشـابٍّ طويـلِ القامة، يلفُّ رأسَهُ بقماشٍ يبدو أنه "شرشف" ممزقٌ غطَّتْه بقعُ الدم، فلم أتبينْ لونَهُ، بينما ظلَّ ثوبُه الأبيضُ ناصعاً لـم تلوِّثْـهُ الـدماء.. كـان الشـابُّ يبتسـمُ لـي، وينـادي حسـين.. حسين.. فتملَّكني الذهولُ عندها، ركضتُ نحوه محتمياً به مـن وحشـةِ وحـدتي.. كـان أفطـسُ الأنـفِ، بنـيَّ العينـين.. تلك العينان أذكرهما جيداً.. ولـولا أنه أطولُ قامةٍ وأرشق جسماً من زوجِ أختي عمر؛ لخلتُه هو...

توقَّفتُ قبالته ونظرتُ في عينيه، كـان شـعاعاً غريبـاً مطمئنّاً للروح، ينبعثُ منهمـا.. بـادرني بالسؤال.. قـال لي حسين ألـم تعرفني؟ عمـر.. أنـا عمـرُ زوجُ أختـك مـريم.. شـعرتُ بالراحة، لكنني وجَّهتُ له عتابا:

- مـا دمـتُ هنـا يـا عمـر، لمـاذا لـمْ تسـرعْ لمسـاعدتي حين كنتُ أصرخُ طالباً العونَ كي أحملَ هـذا الرجـل الملقى هنا على الجسر، فإن كان ميتاً؛ فلنحملْه إلى ثلاجةِ الموتى، أو

أيّ مكانٍ آخر يمنحُ تلك الجثةَ شهادةَ وفاةٍ وحقاً في الدفن، فأنا مسمَّراً هنا على الجسر منذ ساعات، أحرسُ جثَّتَهُ، خوفي إن تركتها تنهشها الكلاب.. وعدى هذا، فأنا أشعرُ بعطفٍ كبيرٍ نحوه يمنعني من تركه وحيداً.

تركني عمرُ في ذهولي، ولم يقابلْ لهفتي بكلمة.. دار ظهرَهُ لي وسار متسرْنماً نحو وجهةٍ أخرى يتبعُ نوراً بعيداً ينبلجُ قبالته.. أرى الضوءَ الذي يتبعُهُ عمر ولا أرى مصدره، ثم اختفى كلُّ شيء كأنه لم يكن، فعدتُ أدراجي نحو جثةِ الرجلِ الغريب، مثقوبِ الرأس.. بقيتُ جالساً هناك، كمن فقد ذاكرته.. حتى أنني نسيتُ طريقَ العودةِ للمنزل، كانتِ الأصواتُ الغريبةُ تطرقُ سمعي من كل الجهات، وأجسامٌ ضوئيةٌ تتراقصُ أمامي في الأفقِ البعيد، كأنها هالةٌ من نورٍ تتشكَّلُ بأشكالٍ بشريةٍ صغيرةٍ وكبيرة، لم يكونوا بشراً، كانوا شيئاً آخرَ لا أعرفُ كيف أصفُه، كان بعضهم يقفُ، وبعضهم يحلِّق.. وآخرون يشكلون دوائراً، ممسكين بكفِّ بعضهم بعضا.. أسمعهم يطلقون ضحكاتٍ.. ضحكاتٍ بصخبٍ لذيذٍ لا ضوضاءَ فيه.

وفي ظلِّ وحشتي هذه وعيناي تراقبان الجثةَ التي أجلسُ قربها؛ خطرَ لي خاطرٌ مخيفٌ وأنا أحدِّقُ بالثقبِ في جبهةِ الغريب...

**ألم أكنْ وحيداً هنا طيلةَ الليل؟ فمن هذا الرجل الملتصقُ بقدمي!!**

**أيُعقلُ أن أكونَ قد.. ... ؟!!**

**هل يمكن ذلك حقاً؟**

# (44)

# (ما حدث قبل شهر)

لم أخرجْ للعمل، كنتُ ملازماً لفراشي في غرفتي، أشعرُ بأنَّ كلَّ بقعةٍ في جسدي تؤلمني، وأكثرُ بقعةٍ هي تلك التي في يسارِ صدري.. قلبي يبكيك يا ندى... ويبكيك يا ولدي علي.

كيف ساقتك الحياةُ اللعوبُ تلك، لتقع في حبِّ ابنةِ حبيبتي وألمي العميق! وما ذنبك أنت، وذنبُ تلك الزهرةِ اليانعةِ البيضاءِ سارة.. سبحان الخالق، إنها صورةٌ طبقَ الأصلِ من ندى.

سحبت ساقي بتثاقلٍ ونهضت من سريري، كانت زوجتي قد تمدَّدتْ إلى جانبي في السريرِ وراحتْ تغطُّ في نومٍ عميق، تركتُ الغرفةَ وخرجتُ إلى غرفةِ الجلوسِ، كان البيتُ ساكناً والكلُّ قد هجعَ ونامَ إلا أنا وقلبي المضطربُ التائه.. لم أوقظْ زوجتي المتعبة، وتحاملتُ على نفسي وذهبت أعدُّ الشاي لي في المطبخ، يبدو أنَّ النومَ لن يعودَ لزيارتي بعد هذه الليلة.

كنتُ أرتشفُ الشاي الساخن، وأسحب أنفاساً متلاحقةً من سيجارتي، وخيالاتُ الأمسِ البعيد تمرُّ من أمامي مثل شريطٍ سينمائي قديم.. حين وصلتني رسالةٌ على هاتفي، فتحتها وقرأتُ كلماتها:

"حسين.. أنا ندى، لابد أن نتكلم.. أأتصلُ بك الآن ؟"

ندى.. إنها الماضي والحاضرُ والمستقبل، إنها وجعي الذي يرفضُ كلَّ مسكناتِ الألم.

رددتُ على رسالتها ب "نعم.. أنا في انتظارك الآن"

بعد ثوانٍ رنَّ هاتفي، وسمعتُ صوتها ينساب في أذني.. ويسحبني لأعماقِ محيطٍ لا قرارَ له..

- حسين.. كيف حالك؟

- حالي.. أتسألينني عن حالي يا ندى؟ وماذا تتوقعين أن يكونَ حالي بعد أن فقدتك؟

- حسين في قلبي سؤالٌ عشتُ بعذابِه سنواتٍ طويلة، وقد جاء بي القدرُ العجيبُ إلى منزلك.. يومان وأنا مترددةٌ في محادثتك، لابد أن تجيبني عن سؤالي يا حسين ليرتاح قلبي.

- أجيبك يا ندى، تكلمي

- لماذا.. لماذا أدخلتَ نفسك في مصيرٍ كان مجهولاً بالنسبة لي، وتركتني أواجه وحدتي بمفردي؟

- نفس هذه ال "لماذا" تلح عليَّ منذ أن أخبرتني والدتك بأنك تزوَّجت.. أكانت ثمانيةُ أشهر من غيابي عنك؛ كافيةً لتخوني عهدك لي يا حبيبة القلب؟

- لست خائنة أنا يا حسين.. أنت من هجرني وأخلف وعده.

- إنها ثمانية أشهر يا ندى، حتى أنك لم تفكِّري - ولو بدافع الفضول - أن تنتظريني، لتعرفي ما حل بي.. لكنني أعذر تخليك عن العهد يا ندى، أين أنا من زوجك العقيد رفيعِ المستوى

- لا تطعن بوفائي لك، أنت لا تفهم ما الذي مررتُ به في غيابك أربعُ ساعاتٍ من الليلِ مرَّتْ ونحن نجترُّ ألَمَ السنوات الغابرة، أجبتها على سؤالها، وقصصتُ لها مالم أقصْهُ على أمي وزوجتي من عذابات الزنزانة ولياليها، ثم حان دورها هي لتجيبني على كل "لماذا" طرحتها عليها..

أخبرتها برسائلي التي كنتُ أكتبها لها في كل مرة، وكيف كانت تغرقُ بدمي مرة، وتضيع في الزنزانة السوداء مراتٍ عديدة.

- يا إلهي.. ما الذي فعلته بنفسك! أيُّ حمقٍ قادك لترتكبَ فعلتك تلك؟ هذا جبن وتخاذل منك يا حسين.

- جبان أنا يا ندى! هل هذا ما علمك إياه زوجك القائد العسكري الكبير؟

يبدو أنك ممن يعتقد بأنَّ الرجال البسطاءَ من الجرمِ أن يفكروا، أن تكونَ لهم معتقداتٌ يؤمنون بها، وأنَّ التفكيرَ هو من حقِّ القوي الجريء المقدام، والمقدامُ هو على حقٍّ أكثر من غيره، وهو من يقرّرُ مصيرَ سوادَ القوم، لأنَّه أقوى منهم إرادة ولا فائدةَ من شرحِ وجهةِ نظرهِ للناس، لأنَّهم لا يفهمون، فهُمْ في نظرهِ رعاع.. ولا داعي من بذلِ مجهودٍ لتغييرهم... المقدامُ وحده له الحق في تشريعِ وتسييرِ أمورهم.

- لم يحطمْك سوى تلك الأفكارِ الغريبة والمتطرفة يا حسين، مالك أنت وما ستؤولُ إليه حال الآخرين.. كان لابد لك أن تكملَ خدمتك العسكرية مقتنعاً كنتَ أم رافضا، أما ما أقدمتُ عليه؛ فلا يعدو كونه ضعفاً وهروباً من المواجهة...

- قلبتك عشرتك مع الزوج العظيم إلى امرأةٍ أخرى، امرأةٍ أرستقراطية ترفلُ في النعيم لا يعنيها من أيِّ قمامةٍ يتناولُ الفقراءُ عشاءهم..

أسمعيني يا ندى، يا ماري أنطوانيت زمانك.. لن أبرّرَ لك سببَ رفضي لحربٍ لم تُمسكْ نيرانها، فنحن في بلدٍ يعيشُ

بعض منا مثل النملِ، نحملُ عشرةَ أضعافاً وزناً من الهمومِ والمتاعب، في حين يعيشُ القلائلُ في زمر، تظنُّ أنَّ ثورةَ الشعبِ لم تكن بسببِ الجوعِ، بل فقط لأنَّه سئمَ طعمَ الكعكِ والحلوى، وراح يشتهي الحنطةَ والشعير.

تغيَّرتِ نعم.. تغيَّرتِ يا ندى، ولا أقصدُ بذلك التغيّرَ الظاهري.. فأنت لم تزيدي سوى بعض الكيلوغرامات، وبعض الشعيرات البيضاء التي تضيء ليلَ شعرك الناعم..

لا يعنيني ما تحمليه لي الآن في قلبك.. حبّاً أم سخرية، شفقةً أم فضول.

- لم يغادرني حبك، ولم يتركني أنعم بالهدوء.. كنتِ كابوسي المقيم في صباحي وليلي.

- لكنني لم أعد أقوى على النظرِ في وجهك مرة أخرى، فعيناك تطرقان على أبواب النسيان، وصوتك يسري في أوردتي، ويصعد مع مجرى دمي إلى قلبي المنهك، ثم يستحم هناك بأوكسجين السنوات الضائعات على ضفافِ جدول الدموع، ليعودَ وينتشرَ بفورانٍ مخيفٍ عبر شراييني.

كيف السبيلُ إلى الخلاص يا ندى...

دليني بالله عليك.. كيف السبيلُ إلى نهارٍ صيفيٍّ لا قيظَ فيه، وليلٍ قطبيٍّ دون ارتعاش...

دليني على موتٍ دافئ، يذيبُ صقيعَ الوحشة، فما تبقَّى من الصبرِ لا يكفيني

- وماذا في ذلك.. ما تزال أمامنا فرصة للقاء.. لابد أن تراني وأراك، ولدانا عاشقان، وأنا لم يبرحْ حبك قلبي حتى اليوم.. لماذا هذا الضعفُ منك يا حسين، أين جرأتك المعهودة.

- يبدو أنَّ مقياسَ الجبنَ والشجاعة، الضعف والقوة؛ قد اختل لديك يا ندى. تتهمينني بأنني رجلٌ جبانٌ منذ قليل فقط لأنَّني أرفضُ أن أساقَ لأمورٍ لا أعتقد بصحّتها.. والآن حين يتطلَّبُ الموقفُ مني الشدّةَ والصبرَ للحفاظِ على ترابط عائلتي، أبدو في نظرك ضعيفا. بأيّ لغةٍ تترجمين مواقفَ الرجال أنت يا ندى.. ألم أقل لك أنك ندى أخرى لا أكاد أعرفها.. ندى ترى من الحياةِ الأسودَ والأبيض، ما يجعل من مزاجها رائقاً هو الصواب، وما يضر بمصلحتها هو ضعفٌ وجرم...

- لستُ كذلك.. لكن كفاك تلعبُ دورَ الضحية، وتتلذَّذُ بالعذابِ مثل قدّيسٍ يرى في عذابهِ خلاصاً لبني البشر.. قد ارتكبتَ أنت حمقاً فيما سبق، وحال ذلك دون زواجنا، وأرغمتني الظروفُ فصرتُ زوجةً لرجلٍ آخر، لكنه كان كريماً معي ولم يحرمني من شيء، وها قد حانتِ الفرصةُ

لنا مرةً أخرى، فلماذا نستكين، ونبقى جبناءً ولدينا متسعٌ من الوقتِ لإصلاحِ ما فسد؟

- أيُّ أنا ترضخُ تحتها روحُك يا ندى! لمْ تصبري على اختفائي، واقترنتِ برجلٍ آخرَ فقط لأنَّه منحك رغدَ العيش، لم تعنيك مبادئه ولا مبادئي، لم تنظري حتى للفرقِ الشاسعِ بيني وبينه.. زوجك كان يؤمنُ بفكرةِ الضابطِ المقدامِ الذي يطيع الأوامر ويخوضُ الحروبَ دون أن يكلِّفَ نفسَهُ معاناةَ فهمِ ما تخلّفه حروبه تلك من كوارثٍ ومآسي، لم يرفْ جفنُهُ حين كان ينتهي من كل صولةٍ وجولة، ثم تُحملُ الجثثُ بالمئاتِ إلى المقابرِ فقط لأنَّ وساماً ذهبياً جديداً، سيعلق على صدره، مصطفًّاً مع دزينةِ الأوسمةِ العديدة التي لم يعد صدرُهُ الضخمُ أن يسعها.. كل ما كان يعنيك منه، هو تضاعفُ الأموالِ في رصيدِهِ، والطباخ، والسائق، والخادم، ثم الحارس الذي وظَّفَه لحمايتك وتحت أمرك.. فيما كنت أنا أعرِّضُ نفسي للهلاك، لأنَّني رجلٌ يرفضُ أن يراقَ دمه ليعلِّقَ القادةُ الأوسمةَ على صدورهم، قاسيتُ شظفَ العيشِ طيلةَ عشرِ سنواتٍ عجاف، بُليَتْ فيها أبدانُ الناسِ من العوزِوالفاقة، ولم أفكِّرْ بالسرقةِ أو صعودِ السلّمِ عبر الانضمام لكيانٍ لا

أؤمنُ به، والآن تصفين جلدي، وصبري، أمام سيولك الجارفة بالضعف..

- تحمِّلُ نفسَك فوق ما تطيق، وتتحدث بحديثٍ أكلَ عليه الدهر وشرب، لا أحدَ يفكرُ اليوم إلا بمصلحته يا حسين، ولو توافرتْ فرصةٌ للمرأةِ التي تزوجتها أنت مثل فرصتي حين تقدم لي زوجي رحمه الله؛ لما تأخرتْ في تفضيلِه عليك.. أقول لك هذا الكلام لعلمي بحبك لي، وعدم مقدرتك على الصمودِ أمام ماضينا وذكرياتنا..

- أنتِ تعتبرينني ضعيفاً وخيالياً، أو ربما سريالياً.. بل الحقُّ أنك تفكرين نيابةً عني، وتفترضين ما يتناسب والأنا التي يقوم عليها عمودُ روحِك الفقري.

حمداً لله أن ما كتبته من رسائلٍ عند رقودي في المستشفى العسكري، وفي زنزانتي، لم تصلْ إليك.. فلو وصلتْ لكان مصيرها سلةُ المهملات، فهي رسائلُ شاعرٍ موهومٍ بالحرية والسلام، يؤمنُ أنَّ ما يقوم عليه الكون هو الحب، وللحبِّ أوجهٌ كثيرة.. ما تحمليه لي في قلبك ليس حبَّاً يا ندى، إنه الغرور.. ترغبين إرضاءَ غرورك حين ترين العاشقَ يرتمي تحت تراب قدميك، بعد أن قاربَ الستين من العمر، ضارباً كلَّ أوجهِ الحبِّ الأخرى، ناحراً إياها في محرابِ عينيك.. كلا يا ندى.. إن فعلتُ ما تطلبيه

مني؛ فلن أكون سوى رجلٍ مخادعٍ تافه.. وهذا ما لستُ عليه في الحقيقة، حبي لك ظلَّ سريّاً، ولم أفشِ به لأحد، وزوجتي لا تستحقُّ مني تلك الضربةُ المؤلمة التي ستمزق قلبها ولا ريب، صفيني كما تشائين، لكن كوني رحيمةً بالعاشقين الصغيرين، ولا تتخذي منهما طعماً لتصطادي ما زهدتِ به فيما مضى، وتذكَّري أنَّ للحبِّ عدة أوجهٍ.. لا وجه واحد.

********

تسيرُ ممسكةً بذراعي، وعطرها يعبقُ في الأرجاء، كانت تبدو مثل باقةِ وردٍ يانعةٍ في فستانها الأبيض الطويل، أميرة من قصصِ ألفِ ليلةٍ وليلة، سارة.. هدية الحياة إلي، هدية هذه الأرض التي شبعتْ من الموتِ، وسقيتْ بالدماءِ بدلَ المطر، هذه الأرضُ المنكوبة، أهدتني أجملَ زهرةٍ تفتَّحتْ على ترابها..

سارة.. إنك تختزلين كلَّ حسنِ الكونِ في خضرةِ عينيك، أين شبيهاتك التسعُ والثلاثين يا سارة.. لابد أنَّ الله اختزلهن كلهن فيك، فلا شبيهةً لك ما بين السماءِ والأرض، نجمةٌ وحيدةٌ ترضِعُ خدَّ السماء.. مددتُ كفي، فراحت تنامُ بين راحتي، ونورها يضيءُ عتمةَ أيامي...

كان عرسنا حفلاً صغيراً، لم ندعُفيه غير الأحبةِ والمقربين جداً لنا، كان احتفالنا ببيتِ والدةِ سارة، فلو أقمناه في حينا؛ لهرعَ الملثَّمون إلينا، يأمروننا بأن نضعَ عباءةً سوداءَ نغطِّي بها العروس، وأن نغلقَ جهازَ التسجيل الذي يبث الموسيقى، لأنَّها من المحرمات...

كنتُ أشاهدُ الدمع يتلألأ على خدّيّ خالتي ندى، وهي ترقبُ سارة بعينين ملؤها الفرح والرجاء.. واليوم الوحيدُ الذي رأيتُ فيه أمي، وهي ترقصُ من شدةِ الفرحِ؛ كان يوم زواجي...

كانتْ ترقصُ مثل طفلةٍ مبتهجةٍ بحركاتٍ غير نظامية، ولا تمتُّ للرقصِ بصلة، لكنها كانت سعيدةً، فراحت تدورُ وتدور حول نفسها، وتلوح بذراعيها مرة، ثم تعودُ لتصفِّقَ وتدندنَ مع الموسيقى مرة أخرى.

فالناسُ يرقصون فرحاً، ويرقصون ألماً، وكذا حال البكاء.. الدموعُ خير من يعبّرُ عن الحزنِ والفرحِ في حالةِ عجزِنا عن كتمِ الألم، أو عن الرقص فرحاً.

قضينا ليلتنا الأولى في منزلنا الجديد الصغير، والذي اختارتْ سارة كلَّ قطعةِ أثاثٍ فيه على ذوقها.. فكان البيتُ يشبهها، ببياضُه، ورقَّته، والنباتاتُ الخضراءُ المنتشرة في جميع أركانِه.

كنتُ وأنا داخلَ المنزل، يتملَّكني إحساسٌ بأنَّ الربيعَ فصلٌ دائمٌ لا يرحل، ففي كل زاويةٍ التفتُ إليها؛ تقع عيني على لونِ العشبِ أيامِ الربيع، غير عيني سارة الخضراوين اللتين كانتا ربيعي الأبدي.

لكنَّ صوتَ بائعِ قناني الغاز وهو يضربُ قنانيه بقطعةٍ من الحديدِ، أحدثَ فزعاً حتى على الموتى في رقادهم، فأيقظني من نشوةِ حلمي اللذيذ، والتي بقيت ساعاتٍ النهار التي تلتِاستيقاظي القسري، أسترجعه في أحلام يقظتي. سارة وثوب زفافها، ومنزلنا الغارق بالعشب وعطر جسدها، ورقص أمي البريء المضحك...

ما أجملَ الأحلام.. فهي تحقِّقُ لنا كلَّ ما نرغبُ به بأجزاء من الثانية! إنَّ الأحلامَ وسائدٌ تحتضنُ رؤوسنا المتعبة.

لا أدري لِمَ تأخّرَ أبي في الردِّ على طلبي في أن يأتي معي لخطبةِ سارة، وطلْبِ يدِها من والدتها؟ إنَّ أمرَهُ يحيُّرني، فهو متجّهمٌ شاردُ الذهن منذ ذلك اليوم الذي زارتنا فيه سارة ووالدتها.

أمي تعلل شرودَهُ على أنه متعبٌ من كل شيء، سيما ما حدث لي من اختطافٍ كاد يودي بحياتي، ومن الهاويةِ التي يسيرُ نحوها الجميعُ في بلدٍ على شفا جرفِ الجحيم.

# (45)

برعمان صغيران تحملهما بطنُ سارة منذ تسعة شهور..
كان وصولي للمستشفى أنا وسارة وخالتي ندى عسيراً جداً، فأغلب الشوارع مغلقة، الناس سئمتْ من الموتِ والذل، سئمتِ الجحيمَ الذي تعيش فيه، تظاهراتٌ واحتجاجاتٌ وأفواهٌ غرثى تصرخ، مما أفضى بنا أن نستغرقَ وقتاً طويلاً لأصلَ بسيارتي، ومن معي إلى المستشفى، في الموعد المحدد لإجراءِ العمليةِ القيصرية لسارة وولادةِ التوأم.
طفلانا الحبيبان. كانت صورتهما تظهرُ في شاشةِ جهازِ الأمواج فوق الصوتية، وهما يحتضنان بعضهما مثل زهرتين في غصن.
قبَّلتُ سارة في جبينها الناصع، وأخبرتها أنني سأقفُ هنا خارجَ بابِ غرفةِ العمليات بانتظارها:
- تشجعي حبيبتي .. لا تخافي أبداً، فأنتِ أميرتي وبطلتي التي أنتظرُ منها رافدين حديثي الولادة، يمرَّان في ترابِ العراق فتنبتُ الأرضُ الجدباءُ ريحانا.
- علي، إن حدث لي مكروه.. وصيتي
- شششششش... ادخلي يا سارة، وإياك أن تعيدي ما قلتِ للتو.. ستخرجين أنتِ وطفلينا معافاة حبيبتي.

كانتْ خالتي ندى تستندُ على كتفي من شدّة ارتعاشها، فهي تفقدُ كلَّ قوتها حين يتعلَّقُ الأمرُ بسارة وحيدتها.
دخلتْ سارة، وبقينا أنا ووالدتها خارجاً ننتظر...
كانتِ الدقائقُ تمرُّ علي كأنها سنواتٌ ثقيلة، وهمومٌ عديدةٌ تثقلُ كاهلي، لكنَّ سعادتي حين أتخيَّلُ
ابتسامةَ والدي وهو يرى وجهَ حفيديه لأول مرة، كانت تطيح بهمومي جانباً.
وجَّهتُ نظري صوبَ الممرضةِ الخارجةِ توَّاً من غرفة العمليات، وهي تتجه نحوي تحملُ بين ذراعيها كائنين حمراوين صغيرين، ملفوفين بقماشٍ أبيض، وأفواههما الصغيرةُ مفتوحة على سعتها تصرخ بصوتٍ حادٍّ وساحر.
ركضتْ خالتي ندى صوبَ الممرضة، وأخذتْ منها الطفلين ونادتني:
- علي.. انظرْ لابنك وبنتك، ملاكان صغيران، مباركٌ لك يا ولدي.
نظرتُ إلى وجهيهما كانا مغمضي العينين، كأنهما طيران من الجنة..
التفت إلى الممرضةِ الواقفةِ قبالتي وسألتها:
- كيف حال زوجتي، اخبريني من فضلك؟

- بخير، سنخرجها بعد أن تفيقَ من التخدير، مباركٌ لكم الصغيران.. ماذا ستسميهما؟

كنتُ أهمُّ بالردِّ على الممرضة باسمي طفلينا أنا وسارة، حين سمعتُ أحدهم ينادي باسمي، التفت خلفي، فوجدتُ زوج عمتي عمر يقفُ ممسكاً بكيسٍ كبيرٍ من الورقِ الأبيض السميك.

- علي خذْ هذه الملابس لوالدك، قل له أن يستحمَّ ويرتدي ما أحضرته له، وليسرعْ فنحن بانتظاره.

- لكن ما الخطبُ يا زوج عمتي، أين ستذهبان، ومن هم الذين في انتظار، ثم إنَّ والدي في البيت، لماذا لم تذهبْ أنت بنفسك وتسلِّمُهُ هذا الكيس؟

- حكاية طويلة يا علي، اذهب فقط لوالدك، وأسرع الخطى، إنه مستلقٍ هناك بين الأزرقين ..

- لم أفهم، أين أبي الآن!؟

- أنه بين المرفوع والجاري.. المجهول والمعلوم، في وسطِ المسافةِ على مرمى رصاصة.

تركني زوج عمتي عمر، بعد أن رمى تلك الألغاز في وجهي، ووضع في يدي ذلك الكيسَ الكبير، فتحته ولم أجدْ فيه سوى ثلاثِ خرقٍ بيضاء بمقاساتٍ مختلفة، مطرزةٌ بكلماتٍ يبدو أنها طلَّسم أو دعاء، فدهشت لذلك.. ما

الذي يمكن لأبي أن يفعلَهُ بتلك الخرق، على أنَّ هاجساً غريباً كان يحوم حولي، شعورٌ مخيفٌ يقول لي أن أبي ليس بخير..

علي.. علي.. ما بك يا ولدي، ماذا حصل لحسين.. اخبرني؟؟

كانت خالتي ندى تصرخُ في وجهي وذراعاها تحتضن الطفلين، وعيناها تبعثان ألفَ علامةِ استفهام، تريد مني جواباً.

لكنَّ الدموعَ كانتْ تغرقُ عيني، وتمنعني من الرؤيةِ وأنا أضحك بشكلٍ هستيريٍّ مجنون.

وخالتي ندى تحتضن الطفلين وتبكي، فتركتُها وخرجتُ مهرولاً أبحثُ عن أبي،

وصوت خالتي ندى يأتي من ورائي وهي تصيح:

- سأسميهما حسين وندى...

حسين وندى ...

ابنك حسين، وابنتك ندى يا علي..

كنتُ أركضُ وساقي تسابقُ الريح، فارتطمَ كتفي من شدة سرعتي والدموع التي تحجبُ الصور أمام عيني بكتفِ امرأةٍ لم أتبينْ ملامحَ وجهها، فقد كانت مبرقعةً بالسواد من قمّةِ رأسها إلى أخمص قدميها، لكن ارتطامي بها دفعها إلى

التعلّق برقبتي بيديها الاثنتين، والصراخ في وجهي بأعلى صوتها:

مجرمون... مجرمون.. قتلة.. مجرمون

وحين حاولتُ التخلُّصَ من كفَّيها المطبقتين على عنقي؛ وقعت أرضاً وشدتني معها، فشعرتُ بيدها تضرب على صدري..

عندها فتحت عيني واستيقظت... وجدتُ أمي هي من يمسكُ بعنقي، ويضرب على صدري لتوقظني من نومي الثقيل وكابوسي المزعج، وهي تصرخ باكية:

- علي.. انهضْ يا ولدي، انهضْ وارتدِ ملابسك بسرعة

- أمي ما بك؟ سحنتك غريبة، وكأنَّ الحربَ العالميةَ الثالثةَ قد قامت!

- ارتدِ ملابسك الآن، ولنخرج

- الساعة هي السادسة صباحاً، أين نذهب في هذا الوقت يا أمي، ما بك!

- انهضْ.. توقَّفَ الزمنُ الآن يا علي.. قد عثروا على زوجِ عمتك عمرَ مقتولاً في مكتبه قبل ساعات، شقَّ أحدهم رأسَهُ بفأس، لم يعثروا على القاتل.

وأبوك..

- ماذا حل بأبي.. تكلمي، أمي، أجيبيني؟

وبصرخةٍ عاليةٍ هبطتْ أمي نحو الأرض على ركبتيها وهي تصيح

"والدك لم يعد للبيت منذ ليلة أمس"

بعينين مفزوعتين كنتُ أنظُر لوالدتي، وأحاول أن أتذكَّرَ ما قاله لي زوج عمتي عمر في حلمي.. وفي ذهولي تهاويتُ أرضاً، محتضناً أمي، مازجاً دمعي بدمعها الساخن.. خدّي يلتصقُ بخدِّها البارد، وذراعي ترتعشان فوق كتفيها، وجدتُ نفسي أهمسُ لها بصوتٍ لم يكن صوتي، كان يشبه صراخاً مكتوماً لشخص لا أعرفه:

-انهضي يا أمي.. وشدّي مئزرك للعزاء، أنا ذاهب لحمل أبي، فقد تأخرنا على مراسم الدفن.

********

مـن النافـذةِ المفتوحـةِ لغرفـةِ النـوم بـدأتْ خيـوطُ الشـمسِ الأولى تتسلَّلُ وتشقُّ العتمةَ، مشكِّلةً شلالاً من نورٍ تسبحُ فيه كائناتٌ صغيرة، غير مباليةٍ بضجيجِ الكونِ، ثم تراقصتْ في الشلالِ فراشتان تسبحُ أجنحتهما الصفراء الذهبية ببقعها السـوداء، فـي عـالمٍ ضـبابيٍّ سـحري يـأتي مـن بعيـد، مـن الجانب الآخر، حيث تسكنُ الحقيقةُ خلف أسوار الانتظار.

(انتهت)

# المحتويات


(رسالة)..... 7

(رصاصة)..... 9

(الجسر- بغداد 2015)..... 11

(الجسر 2015) ..... 45

(اغتصاب)..... 73

(في نهاية النفق)..... 75

(الهدنة)..... 115

مارينززززز..... 145

شتاء 2014م..... 173

(قشورٌ ملونة)..... 195

(بغداد، الجسر 2015)..... 247

(ما حَدَثَ قبل شهر)..... 253